بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

الواجب على كل مسلم الكشف عن معانى كتاب الله . وتفسيره وطلب ذلك التفسير من مظانه ، وتعلمه وتعليمه للأهل والولد وذكر ذلك فى مجالسنا ومجتمعاتنا ، فالعلم الصادق هو علم القرآن . وتعلم التفسير من أوجب الواجبات ، وقد ذم الله تعالى أهل الكتاب قبلنا لإعراضهم عن كتاب الله .

وأحسن طرق التفسير هو تفسير القرآن بالقرآن نفسه ، فإن ما أجمل فى مكان قد بسط فى مكان آخر ثم الاستعانة بعد ذلك بالسنة النبوية التى هى تطبيق عملى للقرآن . وقد يحتج أكثرنا بأن التفاسير متشعبة منها ما يعنى بالنحو أو الصرف أو شغل الصفحات الكبار بتسلسل أسماء الرواة وأن مشاغل الناس فى أيامهم هذه واضطرابهم فى أسباب معاشهم كثيرة لا تتسع لأكثر الناس على ذلك .

لهذا آثرنا إن شاء الله أن نقدم فى أجزاء متتالية خلاصة وافية مركزة معروضة عرضا سهلا شيقا مبوبا هى الوافى الموجز من تفسير شيخ الإسلام الإمام العظيم الحافظ ابن كثير وهو أوفى التفاسير فى هذه المقاصد ويمتاز بأنه يفسر القرآن بالقرآن والأحاديث النبوية وأقوال الصحابة وذكر الظروف والمناسبات كما ترى فى الجزء الأول الذى بين يديك ونرجو أن يظهر الجزء الثانى قريبا والله سبحانه المستعان ؟

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

الواجب على كل مسلم الكشف عن معانى كتاب الله . وتفسيره وطلب ذلك التفسير من مظانه ، وتعلمه وتعليمه للأهل والولد وذكر ذلك فى مجالسنا ومجتمعاتنا ، فالعلم الصادق هو علم القرآن . وتعلم التفسير من أوجب الواجبات ، وقد ذم الله تعالى أهل الكتاب قبلنا لإعراضهم عن كتاب الله .

وأحسن طرق التفسير هو تفسير القرآن بالقرآن نفسه ، فإن ما أجمل فى مكان قد بسط فى مكان آخر ثم الاستعانة بعد ذلك بالسنة النبوية التى هى تطبيق عملى للقرآن . وقد يحتج أكثرنا بأن التفاسير متشعبة منها ما يعنى بالنحو أو الصرف أو شغل الصفحات الكبار بتسلسل أسماء الرواة وأن مشاغل الناس فى أيامهم هذه واضطرابهم فى أسباب معاشهم كثيرة لا تتسع لأكثر الناس على ذلك

لهذا آثرنا إن شاء الله أن نقدم فى أجزاء متتالية خلاصة وافية مركزة معروضة عرضا سهلا شيقا مبوبا هى الوافى الموجز من تفسير شيخ الإسلام الإمام العظيم الحافظ ابن كثير وهو أوفى التفاسير فى هذه المقاصد ويمتاز بأنه يفسر القرآن بالقرآن والأحاديث النبوية وأقوال الصحابة وذكر الظروف والمناسبات كما ترى فى الجزء الأول الذى بين يديك ونرجو أن يظهر الجزء الثانى قريبا والله سبحانه المستعان ؟

مقـــدمة

السور المكية والمدنية

عن قتادة رضى الله عنه أنه قال :

نزل فى المدينة من القرآن البقرة وآل عمران والنساء والمائدة وبراءة والرعد والنحل والحج والنور والأحزاب ومحمد والفتح والحجرات والرحمن والحديد والمجادلة والحشر والممتحنة والصف والجمعة والمنافقون والتغابن والطلاق و (يا أيها النبي لم تحرم) إلى رأس العشر وإذا زلزلت و (إذا جاء نصر الله)

هذه السور نزلت بالمدينة

وسائر السور بعد ذلك نزلت بمكة

عدد آيات القرآن

وأما عدد آيات القرآن العظيم فستة آلاف آية ، ثم اختلف فيما زاد على ذلك على أقوال : فمنهم من لم يزد على ذلك ، ومنهم من قال بالزيادة إلى مائتى وست وثلاثين آية فوق ذلك .

وأما كلمات القرآن فعن عطاء بن يسار أنها ثلثمائة ألف حرف وأحد وعشرون ألف حرف ومائة وثمانون حرفا

وروى بعضهم عدد الحروف باختلاف يسير

وقال سلام أبو محمد الحانى .. أن الحجاج جمع القراء والحفاظ والكتاب فقال أخبرونى عن القرآن كله من كم حرف هو ؟

قال : فحسبنا فأجمعوا أنه ثلثمائة ألف وأربعون ألفا وسبعمائة وأربعون حرفا

قال : فأخبرونى عن نصفه فإذا هو إلى الفاء من قوله فى الكهف (وليتلطف) وثلثه الأول عند رأس مائة أو إحدى ومائة من الشعراء ، والثالث إلى آخره

أجزاء القرآن

وأما تقسيمه إلى أحزاب وأجزاء فقد اشتهرت الأجزاء من ثلاثين كما فى الربعات بالمدارس وغيرها .

وعن أوس بن حذيفة أنه سأل أصحاب رسول الله ﷺ فى حياته كيف تحزبون القرآن (تجعلونه أحزابا) ؟ قالوا ثلث وخمس وسبع وتسع وأحد عشرة وثلاث عشرة وحزب حتى نختم

معنى السورة

واختلف فى معنى السورة مما هى مشتقة .

ومن أحسن الأقوال أنها لجمعها وأحاطتها الآيات مثلها كمثل « سور » البلدان الذى يحدها ويحيط بمنازلها ودورها وجمع السورة سور .

وأما معنى الآية .. فمن العلامة على انقطاع الكلام الذى قبلها عن الذى بعدها

وقيل سميت آية لأنها عجب يعجز البشر عن التكلم بمثلها

ليس فى القرآن تراكيب أعجمية

قال القرطبى أجمعوا على أنه ليس فى القرآن شىء من التراكيب الأعجمية ، وأجمعوا أن فيه أعلاما من الأعجمية ، كابراهيم ونوح ولوط ، واختلفوا هل فيه شىء من غير ذلك بالأعجمية فانكر ذلك الباقلانى ، والطبرى ، وقالا ماوقع فيه مما يوافق الأعجمية فهو من باب ما توافقت فيه اللغات .

سـورة الفاتحة

بسم الله الرحمن الرحيم

أم القرآن

فى الحديث الصحيح عن أبى هريرة رضى الله عنه قال

قال رسول الله ﷺ « الحمد لله رب العالمين أم القرآن ، وأم الكتاب والسبع المثانى والقرآن العظيم »

وسميت سورة الفاتحة صلاة ، لأنها شرط فيها ويقال لها (الشفاء) لما روى عن أبى سعيد « فاتحة الكتاب شفاء من كل سم » ويقال لها (الرقية) لحديث أبى سعيد فى الصحيح حين رقى بها الرجل السليم فقال له رسول الله ﷺ « ومايدريك أنها رقية »

كما روى أن ابن عباس سماها (أساس القرآن) . وسماها يحيى بن كثير (الكافية) لأنها تكفى عما عداها ولا يكفى ما سواها عنها .

واختلف فى نزولها . . فقيل نزلت بمكة وقيل بالمدينة . . وهى سبع آيات بلا خلاف تقريبا

وإنما اختلفوا فى البسملة هل هى آية مستقلة من أولها كما هو عند جمهور قراء الكوفة أولا تعد من أولها كما هو قول أهل المدينة من القراء

قال البخارى سميت أم الكتاب لأنه يبدأ بكتابتها فى المصاحف ويبدأ بقراءتها فى الصلاة ، وقيل أنها (أى الفاتحة) سميت بأم القرآن لرجوع معانى القرآن كله إلى ما تضمنته ، والعرب تسمى كل جامع أمراً . . « أما » . . فتسمى مكة بأم القرى لتقدمها أمام جميعها وجمعها ما سواها ، ويقال أنها سميت بالفاتحة لأنه تفتتح بها القراءة . وافتتحت الصحابة بها قراءة المصحف الإمام

وصح تسميتها بالسبع المثانى لأنها تثنى فى الصلاة فتقرأ فى كل ركعة وعن أبى هريرة قال . قال رسول الله ﷺ .. الحمد لله رب العالمين سبع آيات :

بسم الله الرحمن الرحيم إحداهن ، وهى السبع المثانى والقرآن العظيم ، وهى أم الكتاب ، وفاتحة الكتاب »

وقد قيل . . أن الفاتحة أول شيء أنزل من القرآن وقيل (يا أيها المدثر) وقيل (اقرأ باسم ربك الذى خلق)

ذكر بعض ما ورد فى فضل الفاتحة

روى أن أبا سعيد مولى بن عامر بن كريز أخبر أن رسول الله ﷺ نادى أبى بن كعب وهو يصلى فى المسجد فلما فرغ من صلاته لحقه قال فوضع النبى ﷺ يده على يدى وهو يريد أن يخرج من باب المسجد ثم قال صلى الله عليه وسلم :

« إنى لأرجو أن لاتخرج من باب المسجد حتى تعلم سورة ماأنزل فى التوراة ولافى الانجيل ولا فى القرآن مثلها » قال أبى رضى الله عنه فجعلت أبطىء فى المشى رجاء ذلك ثم قلت يارسول الله ما السورة التى وعدتنى ؟ قال « كيف تقرأ إذا افتتحت الصلاة ؟ » قال فقرأت عليه (الحمد لله رب العالمين) حتى أتيت على آخرها فقال رسول الله ﷺ « هى هذه السورة وهى السبع المثانى والقرآن العظيم الذى أعطيت » .

تفاضل بعض الآيات والسور

واستدل بعضهم بهذا الحديث وأمثاله على تفاضل بعض الآيات والسور على بعض ، كما هو المحكى عن كثير من العلماء منهم اسحق بن راهويه وأبو بكر بن العربى وابن الحفار من المالكية، وذهبت طائفة أخرى إلى أنه لا تفاضل فى ذلك لأن الجميع كلام الله ، ولئلا يوهم التفضيل نقص المفضل عليه ، وأن كان الجميع فاضلا

الرقية بالفاتحة

وعن أبى سعيد الخدرى قال : كنا فى مسير لنا فنزلنا فجاءت جارية فقالت إن سيد الحى سليم (لديغ) ولا أحد من أهلنا حاضر فهل منكم راق ؟ فقام معها رجل فرقاه فبرأ ، فأمر له بثلاثين شاه وسقانا لبنا ، فلما رجع قلنا له أكنت تحسن رقية أو كنت ترقى ؟ قال لا مارقيت إلا بأم الكتاب . قلنا لا تحدثوا شيئا حتى نأتى ونسأل رسول الله ﷺ ، فلما قدمنا المدينة ذكرناه للنبى ﷺ فقال « وما كان يدريه أنها رقية ، أقسموا واضربوا لى بسهم »

وفى بعض الروايات أن أبا سعيد الخدرى هو الذى رقى ذلك السليم يعنى اللديغ يسمونه بذلك تفاؤلا .

قراءة الفاتحة فى الصلاة

وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال « من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم الكتاب فهى خداج ثلاثا غير تمام » فقيل لأبى هريرة أنا نكون خلف الامام فقال أقرأ بها فى نفسك فانى سمعت رسول الله ﷺ يقول: قال الله عز وجل« قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين ولعبدى ما سأل فاذا قال (الحمد لله رب العالمين) قال الله حمدنى عبدى ، وإذا قال (الرحمن الرحيم) قال الله أثنى على عبدى ، فاذا قال (مالك يوم الدين) قال الله مجدنى عبدى ، وقال مرة فوض إلى عبدى ، فاذا قال (إياك نعبد وإياك نستعين) قال الله هذا بينى وبين عبدى ولعبدى ما سأل ، فاذا قال (اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين) قال الله هذا لعبدى ولعبدى ما سأل .

هل تجب قراءة الفاتحة على المأموم . ؟

العلماء على ثلاثة أقوال

(أحدها) أنه تجب عليه قراءتها كما تجب على إمامه

(والثانى) لاتجب على المأموم قراءة بالكلية للفاتحة ولاغيرها لافى صلاة الجهرية ، ولا فى صلاة السرية .

(والثالث) أنه تجب القراءة على المأموم فى السرية ، ولايجب ذلك فى الجهرية لما ثبت فى صحيح مسلم عن أبى موسى الأشعرى قال : قال رسول الله ﷺ « إنما جعل الإمام ليؤتم به فاذا كبر فكبروا وإذا قرأ فأنصتوا » .

أمانة من كل شىء

عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إذا وضعت جنبك على الفراش وقرأت فاتحة الكتاب وقل هو الله أحد فقد أمنت من كل شىء إلا الموت »

تفسير الاستعاذة وأحكامها

العدو الانسى والعدو الشيطانى

قال الله تعالى : (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ، وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم) وقال تعالى (وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين ، وأعوذ بك رب أن يحضرون) وقال تعالى (إدفع بالتى هى أحسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم . وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذوحظ عظيم . وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم).

فهذه ثلاث آيات ليس لهن رابعة فى معناها ، وهو أن الله تعالى يأمر بمصانعة العدو الأنسى والإحسان إليه ليرده عنه طبعه الطيب الأصل إلى الموالاة والمصافاة ، ويأمر بالاستعاذة به من العدو الشيطانى لامحالة إذ لايقبل مصانعة ولا إحسانا ، ولا يبتغى غير هلاك ابن آدم لشدة العداوة بينه وبين أبيه آدم من قبل كما قال تعالى (يابنى آدم لايفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة) وقال (أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى، وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا) وقد أقسم للوالد آدم عليه السلام أنه له لمن الناصحين وكذب فكيف معاملته لنا وقد قال (فبعزتك لأغوينهم أجمعين ، إلاعبادك منهم المخلصين) .

وقال تعالى (فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ، إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا ، وعلى ربهم يتوكلون ، إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون) .

أعمال الشيطان .. الهمز والنفخ والنفث

والمشهور الذى عليه الجمهور أن الاستعاذة إنما تكون قبل التلاوة لدفع الموسوس عنها

وعن أبى سعيد الخدرى قال : كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل فاستفتح صلاته وكبر قال « سبحانك اللهم وبحمدك ، وتبارك اسمك وتعالى جدك ، ولا إله غيرك — ثم يقول — لاإله إلا الله — ثلاثا ثم يقول — أعوذ بالله السميع العليم ، من الشيطان الرجيم ، من همزه ونفخه ونفثه » .

وقد فسر الهمز بالخنق ، والنفخ بالكبر ، والنفث بالشعر .

* * *

عن أبى بن كعب رضى الله عنه قال : تلاحى رجلان عند النبى ﷺ فتمزع أنف أحدهما غضباً فقال رسول الله ﷺ « إنى لأعلم شيئا لو قاله لذهب عنه ما يجد ، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » .

وعن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال : استب (من السباب) رجلان عند النبى ﷺ فغضب أحدهما غضبا شديداً حتى يخيل إلى أن أحدهما يتمزع أنفه من شدة غضبه فقال النبى ﷺ « إنى لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد من الغضب » فقال : ما هى يا رسول الله ؟ قال يقول « اللهم إنى أعوذ بك من الشيطان الرجيم » قال . . فجعل معاذ يأمره فأبى وجعل يزداد غضبا

الاستعاذة قبل القراءة

وقد جاء فى الاستعاذة أحاديث كثيرة وقد روى أن جبريل عليه السلام أول مانزل بالقرآن على رسول الله ﷺ أمره بالاستعاذة . وفى رواية لابن عباس أن جبريل قال « يامحمد استعذ » قال « استعيذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم » ثم قال « قل بسم الله الرحمن الرحيم » ثم قال (اقرأ باسم ربك الذى خلق) .

هل الاستعاذه مستحبة أم حتمية ..؟

جمهور العلماء على أنها مستحبة ليست بحتمة وحكى الرازى عن عطاء بن أبى رباح وجوبها فى الصلاة . وخارجها كلما أراد القراءة ومن لطائف الاستعاذة أنها طهارة للفم مما يتعاطاه من اللغو والرفث وتطييب له لتلاوة كلام الله ، وهى استعانة بالله ، واعتراف له بالقدرة ، وللعبد بالضعف والعجز عن مقاومة هذا العدو المبين الباطنى الذى لا يقدر على منعه ودفعه إلا الله الذى خلقه ، ولا يقبل مصانعة ، ولا يدارى بإحسان بخلاف العدو من نوع الإنسان كما دلت على ذلك آيات من القرآن فى ثلاث من المثانى وقال تعالى (إن عبادى ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا) وقد نزلت الملائكة لمقاتلة العدو البشرى فمن قتله العدو الظاهر البشرى كان شهيداً ومن

قتله العدو الباطنى (الشيطان) كان طريدا ، ومن غلبه العدو الظاهرى (الانسانى) كان مأجورا ، ومن قهره العدو الباطنى كان مفتونا أو موزورا .

ولما كان الشيطان يرى الإنسان من حيث لا يراه استعاذ منه بالذى يراه ولا يراه الشيطان .

معنى أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

أستجير بجناب الله من الشيطان الرجيم أن يضرنى فى دينى أو دنياى أو يصدنى عن فعل ما أمرت به ، أو يحثنى على فعل ما نهيت عنه فان الشيطان لا يكفه عن الانسان إلا الله ، ولهذا أمر تعالى بمصانعة شيطان الانس ومداراته باسداء الجميل اليه ليرده طبعه عما هو فيه من الاذى ، وأمر بالاستعاذة به من شيطان الجن لأنه لا يقبل رشوة ولا يؤثر فيه جميل لأنه شرير بالطبع

تفسير معنى كلمة الشيطان

الشيطان فى لغة العرب مشتق من شطن أى بعد فهو بعيد بطبعه عن طباع البشر وبعيد بفسقه عن كل خير ، وقيل أنه مشتق من شاط ، لأنه مخلوق من نار ، ومنهم من يقول كلاهما صحيح ، وقال سيبويه : العرب تقول تشيطن فلان إذا فعل فعل الشياطين ولو كان من شاط ، لقالوا تشيط ، فالشيطان مشتق من البعد على الصحيح ولهذا يسمون كل من تمرد من جنى أو انسى وحيوان شيطانا قال الله تعالى (وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا شياطين الإنس والجن يوحى لبعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا) وفى مسند الإمام أحمد عن أبى ذر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ يا أبا ذر « تعوذ بالله من شيطان الإنس والجن » فقلت أو للأنس شياطين ؟ قال « نعم »

معنى كلمة رجيم

أى أنه مرجوم مطرود عن الخير كله كما قال تعالى (ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين) .

تفسير بسم الله الرحمن الرحيم

افتتح بها الصحابة كتاب الله ، واتفق العلماء على أنها بعض آية من سورة النمل ، ثم اختلفوا هل هى آية مستقلة فى أول كل سورة ، أو من أول كل سورة ، كتبت فى

أولها ، أو أنها بعض آية من كل سورة ، أو أنها كذلك فى الفاتحة دون غيرها . .

وعن ابن عباس رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ كان لا يعرف فصل السورة حتى ينزل عليه (بسم الله الرحمن الرحيم)

الجهر فى البسملة

أن الجهر بها متفرع مما ذكر ، فمن رأى أنها ليست من الفاتحة فلا يجهر وكذا من قال إنها آية فى أولها ، وأما من قال بأنها من أوائل السور فاختلفوا فى الجهر فذهب الشافعى إلى الجهر بها مع الفاتحة والسورة وهو مذهب طوائف من الصحابة والتابعين ، وأئمة المسلمين سلفا وخلفا ، فجهر بها من الصحابة أبو هريرة وابن عمر وابن عباس ومعاوية وغيرهم

وعن أبى هريرة أنه صلى فجهر فى قراءته بالبسملة وقال بعد أن فرغ إنى لأشبهكم صلاة برسول الله ﷺ

قراءة النبى ﷺ

فى صحيح البخارى عن أنس بن مالك أنه سئل عن قراءة النبى ﷺ فقال ، كانت قراءته مدا ثم قرأ بسم الله الرحمن الرحيم يمد بسم الله ، ويمد الرحمن ، ويمد الرحيم

وروى عن أنس أن معاوية صلى بالمدينة فترك البسملة فأنكر عليه من حضره من المهاجرين ذلك ، فلما صلى المرة الثانية بسمل

اسم الله الاعظم

عن ابن عباس أن عثمان بن عفان سال رسول الله ﷺ عن بسم الله الرحمن الرحيم فقال « هو اسم من أسماء الله وما بينه وبين اسم الله الأكبر ، الا كما بين سواد العينين وبياضها من القرب » وعنه ﷺ أنه قال « أنزلت على آية لم تنزل على نبى غير سليمان ابن داود وغيرى وهى بسم الله الرحمن الرحيم »

وقال الإمام أحمد بن حنبل فى مسنده حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن عاصم قال : سمعت أبا تميمة يحدث عن رديف النبى ﷺ قال عثر النبى ﷺ . فقلت تعس الشيطان ، فقال النبى ﷺ «لا تقل تعس الشيطان . فإنك إذا قلت تعس الشيطان تعاظم وقال : بقوتى صرعته . وإذا قلت بسم الله تصاغر حتى يصير مثل الذباب » فهذا من تأثير بركة باسم الله ، ولهذا تستحب فى أول كل عمل وقول .. فتستحب فى

أول الخطبة لما جاء « كل أمر لا يبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم فهو أجذم » وتستحب البسملة عند دخول الخلاء لما ورد فى الحديث فى ذلك ، وتستحب فى أول الوضوء لما جاء فى مسند الإمام أحمد والسنن « لا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه » وهو حديث حسن . وكذا تستحب عند الذبيحة وكذلك تستحب عند الجماع وفى الحديث الشريف « لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتى أهله قال بسم الله اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان مارزقتنا فانه إن يقدر بينهما ولد لم يضره الشيطان أبداً »

* * *

(الله) علم على الرب تبارك وتعالى .. يقال أنه الاسم الأعظم لأنه يوصف بجميع الصفات كما قال تعالى (هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون . هو الله الخالق البارىء المصور له الاسماء الحسنى يسبح له ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم) فأجرى الأسماء الباقية كلها صفات له

وفى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « أن لله تسعة وتسعين أسما ، مائة إلا واحدا من أحصاها دخل الجنة)

* * *

قال القرطبى هو مشتق من وله ، والوله ذهاب العقل ، يقال رجل واله وامرأة ولهى ومولوهة إذا أرسل فى الصحراء ، فالله تعالى يحير أولئك فى الفكر فى حقائق صفاته ، وقيل أنه مشتق من ألهت إلى فلان أى سكنت اليه فالعقول لا تسكن إلا إلى ذكره والارواح لا تفرح إلا بمعرفته لأنه الكامل على الاطلاق دون غيره قال الله (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) وقيل من لاه يلوه إذا احتجب وقيل اشتقاقه من أله الفصيل أولع بأمه والمعنى أن العباد مألوهون مولعون بالتضرع إليه فى كل الاحوال وقيل مشتق من أله الرجل بآله إذا فزع من أمر نزل به فألهه أى أجاره فالمجير لجميع الخلائق من كل المضار هو الله سبحانه لقوله تعالى (وهو يجير ولا يجار عليه) وهو المنعم لقوله تعالى (وما بكم من نعمة فمن الله) وهو المطعم لقوله تعالى (وهو يطعم ولا يطعم) وهو الموجد لقوله تعالى (قل كل من عند الله)

* * *

الرحمن الرحيم

إسمان مشتقان من الرحمة على وجه المبالغة ورحمن أشد مبالغة من رحيم وتقدم الأثر عن عيسى عليه السلام أنه قال: والرحمن رحمن الدنيا والآخرة والرحيم رحيم الآخرة

وعن عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول « قال الله تعالى أنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها أسما من اسمى ، فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته »

وقال ابن عباس عن كلمتى رحمن ورحيم ، هما اسمان رقيقان احدهما أرق من الآخر أى أكثر رحمة كما فى الحديث « إن الله رقيق يحب الرفق فى الأمر كله وأنه يعطى على الرفق مالا يعطى على العنف وقال ابن المبـــارك الرحمن اذا سئل أعطى ، والرحيم إذا لم يسأل يغضب كما جاء فى حديث عن أبى هريرة «من لم يسأل الله يغضب عليه» وفى ذلك قال أحد الشعراء

الله يغضب أن تركت سؤاله وبنى آدم حين يسأل يغضب

* * *

واسمه تعالى الرحمن خاص به ، لم يسم به غيره كما قال تعـــالى (قل ادعوا الله أو أدعوا الرحمن أيا ما تدعوا فله الأسمـاء الحسنى) وقال تعالى (واســـأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون)

ولما تجهرم مسيلمة الكذاب وتسمى برحمن اليمامة كساه الله جلباب الكذب واشتهر به فلا يقال إلا مسيلمة الكذاب فصار يضرب به المثل فى الكذب

وأما الرحيم فإنه تعالى وصف به غيره حيث قال (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤف رحيم) والحاصل أن من أسمائه تعالى ما يسمى به غيره ومنها مالا يسمى به غيره كأسم الله والرحمن والخالق والرازق ونحو ذلك .

وقد زعم بعضهم أن العرب لا تعرف الرحمن ولهذا قال كفار قريش يوم الحديبية لما قال رسول الله ﷺ لعلى اكتب (بسم الله الرحمن الرحيم) فقالوا لا نعرف الرحمن ولا الرحيم .. وقال تعالى (وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفورا) والظاهر إن انكارهم هذا إنما هو جحود وعناد وتعنت فى الكفر

الحمد لله رب العالمين

قال أبو جعفر بن جرير معنى (الحمد لله) الشكر لله خالصا دون سائر مايعبد من دونه . ودون كل ما برأ من خلقه بما أنعم على عباده النعم التى لا يحصيها العدد ، ولا يحيط بعددها غيره أحد ، فى تصحيح الآلات لطاعته وتمكين جوارح أجسام المكلفين لأداء فرائضه مع مابسط لهم فى دنياهم من الرزق ، وغذاهم به من نعيم العيش ، من غير استحقاق منهم ذلك عليه ، ومع ما نبههم عليه ودعاهم اليه ، من الأسباب المؤدية إلى دوام الخلود فى دار المقام فى النعيم المقيم ، فلربنا الحمد على ذلك كله أولا وآخراً .

* * *

وقال أيضا الحمد لله ثناء أثنى به على نفسه وفى ضمنه أمر عباده أن يثنوا عليه فكأنه قال : قولوا الحمد لله .. وقد قيل أن قول القائل الحمد لله ثناء عليه بأسمائه الحسنى وصفاته العلى ، وقوله الشكر لله ثناء عليه بنعمه وأياديه .

عن ابن عباس رضى الله عنه قال: قال عمر رضى الله عنه قد علمنا سبحان الله ولا إله إلا الله فما الحمد لله ؟ فقال على : كلمة رضيها الله لنفسه

وقال ابن عباس أيضا : الحمد لله كلمة الشكر وإذا قال العبد الحمد لله قال شكرنى عبدى .. وقال : الحمد لله هو الشكر لله هو الاستخذاء له والاقرار له بنعمته وهدايته وابتدائه وغير ذلك .

وعن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ « أفضل الذكر لا إله إلا الله وأفضل الدعاء الحمد لله » .. وفى حديث عن أنس بن مالك « ما أنعم الله على عبد نعمة فقال الحمد لله إلا كان الذى أعطى أفضل مما أخذ »

وفى القرطبى فى تفسيره وفى نوادر الأصول عن أنس عن النبى ﷺ قال « لو أن الدنيا بحذافيرها فى يد رجل من أمتى ثم قال الحمد لله لكان الحمد لله أفضل من ذلك » قال القرطبى وغيره أى لكان إلهامه الحمد لله أكثر نعمة عليه من نعم الدنيا لأن ثواب الحمد لا يفنى ونعيم الدنيا لا يبقى قال الله تعالى (المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا)

جزاء الحمد لله

وفى سنن ابن ماجه عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ حدثهم أن عبداً من عباد الله قال يارب لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك وعظيم سلطانك، فعضلت بالملكين فلم يدريا كيف يكتبانها ، فصعدا إلى الله فقالا ، يا ربنا إن عبداً قد قال مقالة لا ندرى كيف نكتبها ، قال الله تعالى وهو أعلم بما قال عبده ماذا قال عبدى ؟ قالا يارب إنه قال لك الحمد يارب كما ينبغى لجلال وجهك وعظيم سلطانك . فقال الله لهما « اكتباها كما قال عبدى حتى يلقانى فأجزيه بها .

الاسم الأعظم

والرب هو المالك المتصرف ، ولا يستعمل الرب لغير الله ، بل بالإضافة تقول رب الدار، ورب كذا، وأما الرب فلا يقال إلا لله عز وجل، وقد قيل أنه الاسم الأعظم والعالمين جمع عالم وهو كل موجود سوى الله عز وجل ، والعوالم أصناف المخلوقات فى السموات وفى البر والبحر (الحمد لله رب العالمين) الحمد لله الذى له الخلق كله السموات والأرض وما فيهن وما بينهن مما لا نعلم . رب الجن والإنس والملائكة والشياطين وفى ذكر عدد العوالم التى خلقها الله تعالى روى عن جابر بن عبد الله أنه قال قتل الجراد فى سنة من سنى عمر التى ولى فيها فسأل عنه فلم يخبر بشىء فاغتم لذلك ، فأرسل راكباً يضرب إلى اليمن وآخر إلى الشام وآخر إلى العراق يسأل هل رؤى من الجراد شىء أم لا: قال فأتاه الراكب الذى من قبل اليمن بقبضة من جراد فألقاها بين يديه فلما رآها كبر ثم قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « خلق الله الف أمة ستمائة فى البحر وأربعمائة فى البر فأول شىء يهلك من هذه الأمم الجراد فإذا هلك تتابعت مثل النظام إذا قطع سلكه » وقيل أنه حديث ضعيف .

* * *

وقوله تعالى (الرحمن الرحيم) تقدم الكلام عليه فى البسملة بما أغنى عن الإعادة قال القرطبى إنما وصف نفسه بالرحمن الرحيم بعد قوله رب العالمين ليكون من باب الترغيب بعد الترهيب كما قال تعالى (إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم) .. وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع فى جنته أحد ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ماقنط من رحمته أحد »

مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ

قرأ بعض القراء (ملك يوم الدين) وقرأ آخرون (مالك يوم الدين) وكلاهما صحيح متواتر .

ومالك مأخوذ من الملك كما قال تعالى (إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون) وقال (قل أعوذ برب الناس ملك الناس)

وأما ملك مأخوذ من المُلك كما قال تعالى (لمن الملك اليوم لله الواحد القهار) وقال (قوله الحق وله الملك) وقال (الملك يومئذ للرحمن وكان يوماً على الكافرين عسيراً)

* * *

وتخصيص الملك بيوم الدين لا ينفيه عما عداه لأنه قد تقدم الأخبار بأنه رب العالمين وذلك عام فى الدنيا والآخرة ، وإنما أضيف إلى يوم الدين لأنه لا يدعى أحد هنالك شيئاً ولا يتكلم أحد إلا بأذنه كما قال تعالى (يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا) وقال تعالى (وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همسا) وقال تعالى (يوم يأتى لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقى وسعيد)

وعن ابن عباس

(مالك يوم الدين) يقول لا يملك أحد معه فى ذلك اليوم حكما كملكهم فى الدنيا ، قال ويوم الدين يوم الحساب للخلائق وهو يوم القيامة يدينهم بأعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر إلا من عفا عنه .

والملك فى الحقيقة هو الله عز وجل قال الله تعالى (هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام) وفى الصحيحين عن أبى هريرة مرفوعا « أخنع اسم عند الله رجل تسمى بملك الأملاك ولا مالك إلا الله » وفيهما عنه عن رسول الله ﷺ قال « يقبض الله الأرض ويطوى السماء بيمينه ثم يقول ، أنا الملك أين ملوك الأرض ؟ أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟ وفى القرآن العظيم (لمن الملك اليوم ؟ لله الواحد القهار) .

والدين الجزاء والحساب كما قال تعالى (يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق) وفى الحديث « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت » أى حاسب نفسه كما قال عمر رضى الله عنه حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا وتأهبوا للعرض الأكبر على من لا تخفى عليه أعمالكم يومئذ تعرضون لاتخفى منكم خافية

إياك نعبد وإياك نستعين

العبادة فى اللغة من الذلة ، يقال طريق معبد وبعير معبد أى مذلل ، وفى الشرع عبارة عما يجمع كمال المحبة والخضوع والخوف لا نعبد إلا إياك ، ولا نتوكل إلا عليك وهذا هو كمال الطاعة والدين كله يرجع إلى هذين المعنيين .

قال بعض السلف الفاتحة سر القرآن وسرها هذه الكلمة (إياك نعبد وإياك نستعين) فالأول تبرؤ من الشرك ، والثانى تبرؤ من الحول والقوة والتفويض إلى الله عز وجل

وهذا المعنى فى غير آية من القرآن كما قال تعالى (فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون) (قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا) (رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا)

وتحول الكلام من الغيبة الى المواجهة بكاف الخطاب كأن العبد اقترب بين يدى الله تعالى فقال (إياك نعبد وإياك نستعين)

الصلاة نصفان

وعن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ « يقول الله تعالى قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين ، فنصفها لعبدى ولعبدى ماسأل ، إذا قال العبد (الحمد لله رب العالمين) قال الله حمدنى عبدى ، وإذا قال (الرحمن الرحيم) قال الله أثنى على عبدى ، فاذا قال (مالك يوم الدين) قال الله مجدنى عبدى ، وإذا قال (إياك نعبد وإياك نستعين) قال هذا بينى وبين عبدى ولعبدى ما سأل !!

وقال قتادة .

(إياك نعبد وإياك نستعين) يأمركم أن تخلصوا له العبادة . وإن تستعينوه على أموركم ، وإنما قدم (إياك نعبد) على (وإياك نستعين) لأن العبادة نه هى المقصودة

والاستعانة وسيلة إليها . والاهتمام والحزم تقديم ما هو الاهم فالأهم والله أعلم .

والعبادة مقام عظيم يشرف به العبد لانتسابه إلى جناب الله تعالى ، وقد سمى الله رسوله صلى ﷺ بعبده فى أشرف مقاماته فقال (الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب) (وأنه لما قام عبد الله يدعوه) (سبحان الذى أسرى بعبده ليلا) فسماه عبداً عند إنزاله عليه وعند قيامه فى الدعوة واسرائه به ، وأرشده إلى القيام بالعبادة فى أوقات يضيق صدره من تكذيب المخاليق حيث يقول .

(ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين واعبد ربك حتى يأتيك اليقين)

إهدنا الصراط المستقيم

قراءة الجمهور بالصاد وقرىء السراط ، وهو سؤال لله تعالى ومن أكمل أحوال السائل أن يمدح مسئوله ثم يسأل حاجته وحاجة إخوانه المؤمنين بقوله (إهدنا الصراط المستقيم) لأنه أنجح للحاجة وأنجع للإجابة ولهذا أرشد الله إليه لأنه الأكمل .

وقد يكون السؤال بطريقة أخرى هى الأخبار عن حال السائل واحتياجه كما قال موسى عليه السلام (رب إنى لما أنزلت إلى من خير فقير)

وقد يتقدم السؤال وصف مسئول كقول ذى النون (لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين)

ومن السؤال أيضا ما يكون لمجرد الثناء على المسئول كما قال

أأذكر حاجتى أم قد كفانى ... حياؤك إن شيمتك الحياء

إذا أثنى عليك المرء يوما ... كفاه من تعرضه الثناء

* * *

وطلب الهداية فى هذا السؤال الإرشاد والتوفيق . . أى إلهمنا أو وفقنا أو ارزقنا وأعطنا (وهديناه النجدين) أى بينا له الخير والشر

وأما الصراط المستقيم فقد أجمعت الأمة من أهل التأويل جميعا على أنه الطريق الواضح الذى لا اعوجاج فيه ، وذلك فى لغة جميع العرب ومن ذلك قول جرير بن عطيه الخطفى الشاعر

أمير المؤمنـــين على صراط إذا أعوج الموارد مستقيم

والشواهد على ذلك أكثر من أن تحصر ثم تستعير العرب الصراط فتستعمله فى كل قول أو عمل

ثم اختلفت عبـارات المفسرين من السلف والخلف فى تفسير الصراط وإن كان يرجع حاصلها إلى شىء واحد وهو المتابعة لله وللرسول وفى حديث أن النبى ﷺ قال « الصراط المستقيم كتاب الله » .

ولذلك جاء فى وصف القرآن « وهو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم » .

وعن النواس بن سمعان عن رسول الله ﷺ قال « ضرب الله مثلاصراطاً مستقيما وعلى جنبتى الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة ، وعلى الأبواب ستور مرخاة ، وعلى باب الصراط داع يقول : يا أيها النـاس أدخلوا الصراط جميعا ولا تعوجوا ، وداع يدعو من فوق الصراط ، فاذا أراد الانسان أن يفتح شيئا من تلك الأبواب قال ويحك لاتفتحه .. فإنك إن فتحته تلجه .. فالصراط الاسلام ، والسوران حدود الله ، والأبواب المفتحة محارم الله ، وذلك الداعى على رأس الصراط كتاب الله والداعى من فوق الصراط واعظ الله فى قلب كل مسلم » .

* * *

وقال بعضهم فى معنى الصراط المستقيم إنه النبى ﷺ وصاحبـاه من بعـده ، فان من اتبع النبى ﷺ واقتدى بالذين من بعده أبى بكر وعمر فقد اتبع الحق ومن اتبع الحق فقد اتبع الاسلام ، ومن اتبع الاسلام فقد اتبع القرآن وهو كتاب الله وحبله المتين وصراطه المستقيم .

فكل هذه أقوال صحيحة يصدق بعضها بعضاً ولله الحمد

* * *

(فان قيل) فكيف يسأل المؤمن الهداية فى كل وقت من صلاة وغيرها وهو متصف بذلك ؟ أى أن المؤمن قد اهتدى فعلا إلى الإيمان فهل السؤال بعد ذلك تحصيل حاصل .؟

فالجواب أن لا : ولولا احتياجه ليلا ونهاراً إلى سؤال الهداية لما أرشده الله تعالى إلى ذلك ، فان العبـد مفتقر فى كل سـاعة وحالة إلى الله تعـالى فى تثبيته على الهداية

ورسوخه فيها وتبصره وازدياده منها واستمراره عليها ، فان العبد لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً إلا ماشاء الله ، فأرشده تعالى إلى أن يسأله فى كل وقت أن يمده بالمعونة والثبات والتوفيق ، فالسعيد من وفقه الله تعالى لسؤاله ، فان الله تعالى قد تكفل بإجابة الداعى إذا دعاه ، ولاسيما المضطر المحتاج المفتقر اليه أناء الليل وأطراف النهار وقد قال تعالى (ياأيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذى نزل على رسوله والكتاب الذى أنزل من قبل) فقد أمر الذين آمنوا بالإيمان وليس ذلك من باب تحصيل الحاصل لأن المراد الثبات والاستمرار والمداومة على الأعمال المعينة على ذلك والله أعلم . وقال تعالى آمراً لعباده المؤمنين أن يقولوا (ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب) وقد كان الصديق رضى الله عنه يقرأ بهذه الآية فى الركعة الثالثة من صلاة المغرب بعد الفاتحة سراً .

فمعنى قوله تعالى (إهدنا الصراط المستقيم) استمر بنا عليه ولا تعدل بنا إلى غيره

* * *

صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين

الذين أنعم الله عليهم هم المذكورون فى سورة النساء (ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا) .

والمغضوب عليهم هم الذين فسدت إرادتهم فعلموا الحق وعدلوا عنه ، ولا صراط الضالين وهم الذين فقدوا العلم فهم هائمون فى الضلالة لا يهتدون إلى الحق .

* * *

اشتملت هذه السورة الكريمة وهى سبع آيات على حمد الله وتمجيده والثناء عليه بذكر أسمائه الحسنى المستلزمة لصفاته العليا ، وعلى ذكر المعاد وهو يوم الدين ، وعلى إرشاده عبيده إلى سؤاله والتضرع اليه والتبرىء من حولهم وقوتهم ، وإلى إخلاص العبادة له وتوحيده بالألوهية تبارك وتعالى ، وتنزيهه أن يكون له شريك أو نظير أو مماثل ، وإلى سؤالهم إياه الهداية الى الصراط المستقيم ، وهو الدين القويم ، وتثبيتهم عليه حتى يقضى لهم بذلك الى جواز الصراط ، المفضى بهم الى جنات النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، واشتملت على الترغيب فى الأعمال الصالحة ليكونوا مع أهلها

يوم القيامة ، والتحذير من مسالك الباطل لئلا يحشروا مع سالكيها يوم القيامة وهم المغضوب عليهم والضالون وهو وحده سبحانه المنفرد بالهداية والإضلال.. لا كما تقول القدرية ومن حذا حذوهم من أن العباد هم الذين يختارون ذلك ويفعلونه ويحتجون على بدعتهم بمتشابه من القرآن ويتركون ما يكون فيه صريحاً فى الرد عليهم ! وهذا حال أهل الضلال وألغى ، وقد ورد فى الحديث الصحيح « اذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم » يعنى فى قوله تعـــالى (فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله)

* * *

يستحب لمن يقرأ الفاتحة أن يقول بعدها آمين . . ومعناه اللهم استجب وذلك لما جاء فى الحديث عن أبى هريرة رضى الله عنه قال كان رسول الله ﷺ إذا تلا (غير المغضوب عليهم ولا الضالين) قال « آمين » حتى يسمع من يليه من الصف الأول ..

وقيل ويستحب ذلك لمن هو خارج الصلاة . ويتأكد فى حق المصلى ، وسواء كان إماما أو مأموما وفى جميع الأحوال لما جاء فى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « إذا أمن الامام فأمنوا فأنه من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ماتقدم من ذنبه » .

قيل بمعنى من وافق تأمينه تأمين الملائكة فى الزمان وقيل فى الإجابة وقيل فى صفة الإخلاص .

* * *

وقد اختلف فى التأمين للمأموم فى الجهرية ، وحاصل الخلاف أن الإمام أن نسى التأمين جهر المأموم به قولا واحداً ، وإن أمن الامام جهراً فعند أبى حنيفة لا يجهر المأموم ، وفى مذهب أحمد بن حنبل أنه يجهر ..

ويرى الإمام الحـــافظ بن كثير أن كان المسجد صغيراً لا يجهر المأموم لأنهم يسمعون قراءة الإمام ، وأن كان كبيراً جهر يبلغ التأمين من فى أرجاء المسجد والله أعلم

* * *

وفى رواية للسيدة عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ ذكرت عنده اليهود فقال « إنهم لم يحسدونا على شىء كما يحسدونا على الجمعة التى هدانا الله لها وضلوا عنها

وعلى القبلة التى هدانا الله لها وضلوا عنها ، وعلى قولنا خلف الإمام آمين ».

وعن أنس قال : قال رسول الله ﷺ « أعطيت آمين فى الصلاة وعند الدعاء ، ولم يعط أحد قبلى إلا أن يكون موسى كان موسى يدعو وهرون يؤمن فاختموا الدعاء بآمين فان الله يستجيبه لكم .

* * *

قال تعالى (وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا ، ربنا ليضلوا عن سبيلك ، ربنا اطمس على أموالهم ، وأشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم قال قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون) فواضح أن موسى وحده هو صاحب الدعاء ومن سياق الكلام أن هرون أمن فنزل منزلة من دعا لقوله تعالى (قد أجيبت دعوتكما) فدل ذلك على أن من أمن على دعاء فكأنما قاله

سورة البقرة

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « لكل شىء سنام ، وان سنام القرآن سورة البقرة ، وفيها آية هى سيدة آى القرآن آية الكرسى » وقال أيضا لاتجعلوا بيوتكم قبوراً فان البيت الذى تقرأ فيه سورة البقرة لا يدخله الشيطان »

* * *

قال عبد الله بن مسعود من قرأ عشر آيات من سورة البقرة فى ليلة لم يدخل ذلك البيت شيطان تلك الليلة، أربع من أولها، وآية الكرسى وآيتان بعدها ، وثلاث آيات من آخرها ، وفى رواية لم يقربه ولا أهله يومئذ شيطان ، ولا شىء يكرهه .

* * *

عن أبى هريرة قال « بعث رسول الله ﷺ بعثاً وهم ذوو عدد فاستقرأهم فاستقرأ كل واحد منهم مامعه من القرآن فأتى على رجل من أحدثهم سنا فقال مامعك يافلان فقال معى كذا وكذا وسورة البقرة : فقال أمعك سورة البقرة ؟ قال نعم قال : اذهب فانت أميرهم » فقال رجل من أشرافهم والله ما منعنى أن أتعلم سورة البقرة إلا أنى خشيت أن لا أقوم بها . فقال رسول الله ﷺ « تعلموا القرآن واقرءوه فان مثل القرآن لمن تعلمه فقرأه وقام به كمثل جراب محشو مسكا يفوح ريحه فى كل مكان

فضل البقرة وفضل آل عمران

فى الحديث الشريف

تعلموا سورة البقرة فإن أخذها بركة وتركها حسرة ولا تستطيعها البطلة (السحرة) ثم سكت ساعة ثم قال « تعلموا سورة البقرة وآل عمران فأنهما الزهراوان يظلان صاحبهما يوم القيامة حين ينشق عنه قبره كالرجل الشاحب فيقول له هل تعرفنى؟ فيقول ماأعرفك فيقول أنا صاحبك القرآن الذى أظمأتك فى الهواجر وأسهرت ليلك ، وإن كل تاجر من وراء تجارته وإنك اليوم من وراء كل تجارة فيعطى الملك بيمينه والخلد بشماله ويوضع على رأسه تاج الوقار ويكسى والداه حلتان لايقوم لهما أهل الدنيا فيقولان بما كسينا هذا فيقال بأخذ ولدكما القرآن ، ثم يقال اقرأ واصعد فى درج الجنة وغرفها فهو فى صعود مادام يقرأ هزاً كان أو ترتيلا »

فسطاط القرآن

والبقرة جميعها مدنية وهى من أوائل مانزل بها لكن قوله تعالى فيه (واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله) يقال إنها آخر مانزل من القرآن وكذلك آيات الربا من آخر مانزل ، وقال بعض العلماء أن البقرة فسطاط القرآن وعدد آياتها مائتان وثمانون وسبع آيات .

وروى أن النبى ﷺ يوم حنين كان ينادى أصحابه فيقول ياأصحاب سورة البقرة . لينشطهم بذلك فجعلوا يقبلون من كل وجه .

الم

والحروف المقطعة فى أوائل السور

اختلف المفسرون فى الحروف المقطعة التى فى أوائل السور فمنهم من قال هى مما استأثر الله بعلمه فردوا علمها إلى الله ولم يفسروها .

ومنهم من فسرها واختلف هؤلاء فى معناها .

قال ابن عباس هى إسم الله الأعظم ، وقيل إنها حروف من التسعة والعشرين حرفا التى دارت فيها الألسن كلها ليس منها حرف إلا وهو مفتاح إسم من أسمائه ، وليس منها حرف إلا وهو من آلائه ، وليس منها حرف إلا وهو فى مدة أقوام وآجالهم ، قال عيسى بن مريم أعجب أنهم ينطقون بأسمائه ويعيشون فى رزقه فكيف يكفرون به ؟

وهذا الاختلاف فى التفسير يمكن الجمع عليه ، فهى أسماء للسور ، ومن أسماء الله تعالى يفتتح بها السور ، فكل حرف منها دل على إسم من أسمائه وصفة من صفاته ، كما افتتح سوراً كثيرة بتحميده وتسبيحه وتعظيمه ، قال ولا مانع من دلالة الحرف منها على اسم من أسماء الله ، وعلى صفة من صفاته ، وعلى مدة وغير ذلك لأن الكلمة الواحدة تطلق على معان كثيرة كلفظة الأمة فإنها تطلق ويراد بها الدين كقوله تعالى (إنا وجدنا آباءنا على أمة) وتطلق كلمة أمة أيضا ويراد بها الرجل المطيع لله كقوله تعالى (إن ابراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين) وتطلق ويراد بها

الحين من الدهر كقوله تعالى (وقال الذى نجا منهما وأدكر بعد أمة) أى بعد حين .

ومع ذلك فأمر تفسير هذه الحروف مختلف فيها وليس فيها إجماع ، وقال بعضهم أنها ذكرت بيانا لإعجاز القرآن ، وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله هذا مع أنه مركب من هذه المقطعة التى يتخاطبون بها ، وقد جاءت على حرف واحد كقوله . . ص.ن.ق .. وحرفين مثل (حم) وثلاثة مثل (ألم) وأربعة مثل (المر) وخمسة مثل (كهيعص) لأن أساليب كلامهم على هذا من الكلمات ماهو على حرف وعلى حرفين وعلى ثلاثة وعلى أربعة وخمسة لا أكثر من ذلك ، ولهذا كل سورة أفتتحت بالحروف فلابد أن يذكر فيها الانتصار للقرآن وبيان إعجازه وعظمته وهذا معلوم بالاستقراء وهو الواقع فى تسع وعشرين سورة ، ولهذا يقول تعالى (الم . ذلك الكتاب لاريب فيه) (الم ، الله لا إله إلا هو الحى القيوم نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه) (المص ، كتاب أنزل إليك فلا يكن فى صدرك حرج منه) (المر ، كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم) وغير ذلك من الآيات الدالة على صحة ماذهب إليه هؤلاء لمن أمعن النظر والله أعلم .

* * *

(ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ)

(الكتاب) هو القرآن ، (ولاريب فيه) لاشك فيه ، وقد يستعمل الريب فى التهمة .

قال جميل

بثينة قالت يا جميل أربتنى ... فقلت كلانا يا بثين مريب

والمعنى أن هذا الكتاب هو القرآن لاشك فيه أنه نزل من عند الله، كما قال تعالى فى السجدة (ألم تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين)

ومن القراء من يقف على قوله تعالى (لاريب) ويبتدىء بقوله تعالى (فيه هدى للمتقين) ، وخصت الهداية للمتقين كما قال تعالى (قل هو الذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد) (وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين ولايزيد الظالمين إلا خسارا) إلى غير

ذلك من الآيات الدالة على اختصاص المؤمنين بالنفع بالقرآن لأنه هو فى نفسه هدى ولكن لاينالـه إلا الأبرار .

✡ ✡ ✡

وعن ابن عبـــاس (هدى للمتقين) قال هم المؤمنون الذين يتقون الشرك بى ويعملون بطاعتى .

وقال أبو بكر بن عياش سألنى الأعمش عن المتقين ، قال فأجبته فقـال لى سل عنها الكلبي فسألته فقال الذين يجتنبون كبائر الإثم .

وقال قتادة عن المتقين هم الذين نعتهم الله بقوله (الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة)

✡ ✡ ✡

وفى الحديث الشريف « لايبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذراً مما به بأس » .

عن ميمون بن أبى حمزة قال : كنت جالساً عند أبى وائل فدخل علينا رجل يقال له أبو عفيف من أصحاب معاذ فقال له شقيق بن سلمة يا أبا عفيف ألا تحدثنا عن معاذ ابن جبل، قال بلى سمعته يقول يحبس النـاس يوم القيامة فى بقيع واحـــد فينادى أين المتقون ؟ فيقومون فى كنف من الرحمن لا يحتجب الله منهم ولا يستتر . قلت من المتقون ؟ قال قوم اتقوا الشرك وعبادة الأوثان ، واخلصوا لله العبادة فيمرون إلى الجنة

ويطلق الهدى ويراد به مايقر فى القلب من الإيمان ، وهذا لا يقدر على خلقه فى قلوب العباد إلا الله عز وجل قال الله تعالى (إنك لا تهدى من أحببت) وقال (ليس عليك هداهم) وقال (من يضلل الله فلا هادى له)

✡ ✡ ✡

طريق ذو شوك

ولقد قيل أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه سأل أبى بن كعب عن التقوى فقال له أما سلكت طريقاً ذا شوك ؟ قال بلى قال فما عملت ؟ قال شمرت واجتهدت ، قال فذاك التقوى لاتحقر صغيرة .. إن الجبال من الحصى

وقال أبو الدرداء

يريد المرء أن يؤتى منـــاه
ويأبى الله إلا ما أرادا
يقـــول المرء فائدتى ومالى
وتقوى الله أفضل ماستفادا

التقوى والزوجة الصالحة

وفى سنن ابن ماجة عن أبى أمامة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ «ما استفاد المرء بعد تقوى الله خيراً من زوجة صالحة إن نظر إليها سرته ، وإن أمرها أطاعته ، وإن أقسم عليها أبرته ، وإن غاب عنها نصحته فى نفسها وماله »

* * *

الذين يؤمنون بالغيب

الإيمان كلمة جامعة للايمان بالله وكتبه ورسله وتصديق الاقرار بالفعل ، فهو قول وعمل يزيد وينقص .. ومنهم من فسره بالخشية كقوله تعالى (إن الذين يخشون ربهم بالغيب) وقوله (من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب) والخشية خلاصة الإيمان والعلم كما قال تعالى (إنما يخشى الله من عباده العلماء .)

وأما الغيب فقد اختلفت عبارات السلف فيه وكلها صحيحة ترجع إلى أن الجميع مراد .. فقال بعضهم (يؤمنون بالغيب) أى يؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وجنته وناره ولقائه ويؤمنون بالحياة بعد الموت وبالبعث

فهذا غيب كله .

وقال بعضهم (يؤمنون بالغيب) أى يؤمنون بالقدر .

* * *

عن خالد بن دريك عن ابن محيريز قال قلت لأبى جمعه حدثنـــا حديثا سمعته من رسول الله ﷺ .. قال نعم أحدثك حديثاً جيـــداً : تغذينا مع رسول ﷺ ومعنا

أبو عبيدة بن الجراح فقال يارسول الله هل أحد خير منا ؟ أسلمنا معك وجاهدنا معك . قال « نعم . قوم من بعدكم يؤمنون بى ولم يرونى »

وفى رواية أخرى عندما سأله أصحابه. هل من قوم اعظم منا أجراً ؟ آمنا بالله واتبعناك قال « ما يمنعكم من ذلك ورسول الله بين اظهركم يأتيكم بالوحى من السماء بل قوم بعدكم يأتيهم كتاب من بين لوحين يؤمنون به ويعملون بما فيه أولئك أعظم منكم أجراً »

* * *

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال قال رسول الله ﷺ أى الخلق أعجب اليكم إيمانا » قالوا الملائكة قال « وما لهم لايؤمنون وهم عند ربهم ؟ » قالوا فالنبيون قال «وما لهم لايؤمنون والوحى ينزل عليهم» قالوا فنحن قال «وما لكم لا تؤمنون وأنا بين أظهركم » قال فقال رسول الله ﷺ « ألا إن أعجب الخلق إلىّ إيمانا لقوم يكونون من بعدكم يجدون صحفاً فيها كتاب يؤمنون بما فيها »

* * *

ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون

إقامة الصلاة بفروضها على مواقيتها ووضوئها والتلاوة والخشوع والإقبال عليها فيها (ومما رزقناهم ينفقون) فى الزكاة والنفقات على الأهل والعيال وغيرهم ممن يجب نفقته بالقرابة والملك وغير ذلك ..

وكثيراً ما يقرن الله تعالى بين الصلاة والانفاق من الأموال فان الصلاة حق الله وعبادته وهى مشتملة على توحيده والثناء عليه وتمجيده والإبتهال اليه ودعائه والتوكل عليه ، والانفاق هو من الاحسان للمخلوقين بالنفع ، وأولى الناس بذلك القرابات والأهلون والمماليك . ثم الأجانب .

فكل من النفقات الواجبة والزكاة المفروضة داخل فى قوله تعالى (ومما رزقناهم ينفقون)

* * *

(والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون)

يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك فهم يصدقون بما جئت به من الله ، وماجاء به من قبلك من المرسلين ، لايفرقون بينهم ولايجحدون ماجاءوهم به من ربهم وبالآخرة هم يوقنون، بما هنالك من بعث وقيامة وجنة ونار وحساب وميزان وإنما سميت الآخرة لأنها بعد الدنيا .

مؤمنو أهل الكتاب

وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن هذا الوصف ينطبق أيضا على المؤمنين من أهل الكتاب باستشهاد من قوله تعالى (وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله) وبقوله تعالى (الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين ، أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرءون بالحسنة السيئة ومارزقناهم ينفقون) وكذلك بما ثبت فى الحديث الشريف « ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين : رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بى ، ورجل مملوك أدى حق الله وحق مواليه ، ورجل أدب جاريته فأحسن تأديبها ثم أعتقها وتزوجها » .

فلا يصح الإيمان بالغيب وإقام الصلاة والزكاة إلا مع الإيمان بما جاء به رسول الله ﷺ وما جاء من قبله من الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين والأيقان بالآخرة كما أن هذا لايصح إلا بهذا وقد قال تعالى عن المؤمنين كلهم (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لانفرق بين أحد من رسله) إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أمر جميع المؤمنين بالإيمان بالله ورسله وكتبه .

خصوصية أهل الكتاب

لكن لأهل الكتاب خصوصية ذلك أنهم يؤمنون بما بأيديهم مفصلا فاذا دخلوا فى الاسلام وآمنوا به مفصلا كان لهم على ذلك الأجر مرتين .

* * *

(أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

أى المتصفون بما تقدم من الإيمان بالغيب وإقام الصلاة والانفاق من الذى رزقهم الله والإيمان بما أنزل إلى الرسول ومن قبله من الرسل والأيقان بالآخرة وما يستلزم ذلك من الأعمال الصالحة وترك المحرمات (على هدى) أى على نور وبيان وبصيرة من الله تعالى (وأولئك هم المفلحون) أى فى الدنيا والآخرة المدركون ما طلبوا عند الله بأعمالهم وأيمانهم والخلود فى الجنات والنجاة مما أعد الله لأعدائه من العقاب .

وعن النبى ﷺ أنه قيل له يا رسول الله إنا نقرأ من القرآن فنرجو ، ونقرأ من القرآن فنكاد أن نيأس ، أو كما قال : قال « أفلا أخبركم عن أهل الجنة وأهل النار ، قالوا بلى يارسول الله قال (الم ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين .. إلى قوله تعالى .. المفلحون) هؤلاء أهل الجنة قالوا إنا نرجوا أن نكون هؤلاء ثم قال (إن الذين كفروا سواء عليهم . . إلى قوله . . عظيم) هؤلاء أهل النار قالوا لسنا هم يا رسول الله . ؟ قال : أجل » .

* * *

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ

(إن الذين كفروا) أى غطوا الحق وستروه وقد كتب الله تعالى عليهم ذلك سواء عليهم إنذارك وعدمه فانهم لايؤمنون بما جئتهم به . فان من كتب الله عليه الشقاوة فلا مسعد له ومن أضله فلا هادى له فلا تذهب نفسك عليهم حسرات وبلغهم الرسالة فمن استجاب لك فله الحظ الأوفر ، ومن تولى فلاتحزن عليهم ولايهمنك ذلك (فإنما عليك البلاغ ، وعلينا الحساب ، إنما أنت نذير والله على كل شىء وكيل) .

فقد كان رسول الله ﷺ يحرص أن يؤمن جميع الناس ويتابعوه على الهدى فأخبره الله تعالى إنه لايؤمن إلا من سبق له من الله السعادة ولايضل إلا من سبق له من الله الشقاوة ، فكفروا بما جاءك وبما عندهم مما جاءهم به غيرك فكيف يسمعون منك إنذاراً وتحذيراً وقد كفروا بما عندهم من علمك ..؟

* * *

(ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم)

استحوذ عليهم الشيطان فأطاعوه فختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة فهم لا يبصرون هدى ولا يسمعون ولا يفقهون ولا يعقلون .. قال تعالى (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم) فالله سبحانه ختم على قلوبهم وحال بينهم وبين الهدى جزاء وفاقا على تماديهم فى الباطل وتركهم الحق وهذا عدل منه تعالى .

عرض الفتن على القلوب

قال رسول الله ﷺ « إن المؤمن إذا أذنب ذنباً كانت نكتة سوداء فى قلبه فان تاب ونزع واستعتب صقل قلبه وإن زاد زادت حتى تعلو قلبه فذلك الران الذى قال الله تعالى (كلا بل ران على قلوبهم ما كان يكسبون) .

فالذنوب إذا تتابعت على القلوب أغلقتها وإذا أغلقتها أتاها حينئذ الختم من قبل الله تعالى والطبع فلا يكون للإيمان إليها مسلك .. ولا للكفر عنها مخلص فذلك هو الختم والطبع الذى ذكر فى قوله تعالى (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم) .

(ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين . يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون)

النفاق هو إظهار الخير وإسرار الشر وهو أنواع : إعتقادى وهو الذى يخلد صاحبه فى النار .

ونفاق عملى .. وهو من أكبر الذنوب كما سيأتى تفصيله فى موضعه إن شاء الله .

وقد نزلت صفات المنافقين فى السور المدنية لأن مكة لم يكن فيها نفاق بل كان العكس إذ كان من الناس من يظهر الكفر مستكرهاً وهو فى الباطن مؤمن، فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة وكان بها الأنصار من الأوس والخزرج ، وكانوا فى جاهليتهم

يعبدون الأصنام على طريقة مشركى العرب . وبها اليهود من أهل الكتاب على طريقة أسلافهم ، وأسلم من أسلم من الأنصار من قبيلتى الأوس والخزرج ، وقل من أسلم من اليهود إلا عبد الله بن سلام رضى الله عنه ، فلما كانت وقعة بدر العظمى وأظهر الله كلمته وأعز الاسلام وأهله أراد عبد الله بن سلول أن يظهر الاسلام محافظة على مكانته فحسب إذ كان قومه قد عزموا من قبل على أن يجعلوه فيهم ملكا فلما أظهر الاسلام إظهارا فقط اقتدى به نفر ممن معه من أهل الكتاب وبذلك وجد النفاق فى المدينة ومن حولها

أما المهاجرون

فلم يكن فيهم أحد إذ لم يكن لأحد أن يهاجر مكرهاً تاركا ماله وأهله وولده . ولهذا نبه الله سبحانه على صفات المنافقين لئلا يغتر بظاهر أمرهم المؤمنون فيقع بذلك فساد عريض من عدم الاحتراز منهم ومن اعتقاد إيمانهم وهم كفار فى نفس الأمر وهذا من المحظورات الكبار أن يظن بأهل الفجور خير فقال تعالى (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين) فهم يقولون ذلك قولا ليس وراءه شىء ، إنما يظهرون ما أظهروا من الإيمان مع إسرارهم الكفر يعتقدون بجهلهم أنهم يخدعون الله بذلك وإن ذلك يروج عليه كما يروج على بعض المؤمنين ولهذا رد سبحانه على اعتقادهم ذلك بقوله (وما يخادعون إلا أنفسهم وما يشعرون) .

والمنافق يظن لجهله أنه يعطى نفسه أمنيتها ، ويسقيها كأس سرورها ، وهو فى حقيقة الأمر موردها حياض عطبها ، ومجرعها به كأس عذابها من غضب الله وأليم عقابه مالاقبل لها به ، فذلك خديعته لنفسه ظنا منه مع إساءته إليها أنه يحسن إليها بما يصنع

* * *

فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون

قصة النفاق والمنافقين

مرض القلوب هو الشك أو الرياء وهو مرض فى الدين وليس مرضاً فى الاجساد فالشك الذى دخلهم فى الإسلام زادهم رجسا وشراً إلى شرهم وضلالة إلى ضلالهم فالجزاء من جنس العمل .

ولذلك يقول الله سبحانه (والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم)

وقد سئل القرطبي وغيره من المفسرين عن حكمة كف النبي ﷺ عن قتل المنافقين مع علمه أعيان بعضهم وذكروا أجوبة عن ذلك منها ما ثبت في الصحيحين أنه ﷺ قال لعمر رضى الله عنه « أكره أن يتحدث العرب أن محمداً يقتل أصحابه »

ومعنى هذا خشية أن يقع بسبب ذلك تغير لكثير من الأعراب عن الدخول في الإسلام ولا يعلمون حكمة قتله لهم وأن قتله إياهم إنما هو على الكفر فإنهم إنما يأخذونه بمجرد ما يظهر لهم فيقولون أن محمداً يقتل أصحابه .

وقد كان يعطى المؤلفة مع علمه بسوء اعتقادهم .

وقال مالك إنما كف رسول ﷺ عن المنافقين ليبين لأمته أن الحاكم لا يحكم بعلمه

وقال الشافعي إنما منع رسول الله ﷺ من قتل المنافقين ما كانوا يظهرونه من الاسلام مع العلم بنفاقهم لأن ما يظهرونه يجب ما قبله وفي الحديث « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فاذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله عز وجل » .

ومعنى هذا أن من قالها جرت عليه أحكام الاسلام ظاهراً ، فان كان يعتقدها وجد ذلك في الدار الآخرة ، وإن لم يعتقدها لم ينفعه جريان الحكم عليه في الدنيا وكونه كان خليط أهل الإيمان .

(ينادونهم ألم نكن معكم ؟ قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأماني حتى جاء أمر الله)

فهم يخالطونهم في بعض المحشر فاذا حقت الحقوقية تميزوا منهم وتخلفوا بعدهم (وحيل بينهم وبين ما يشتهون)

هل كان النبي ﷺ على علم بجميع أعيان المنافقين ..؟

إن من قال بذلك إنما كان يستند إلى حديث حذيفة بن اليمان في تسمية الأربعة عشر منافقا في غزوة تبوك ، الذين هموا أن يفتكوا برسول الله ﷺ في ظلمات الليل عند عقبة هناك حين عزموا على أن ينفروا به الناقة ليسقط عنها فأوحى الله اليه أمرهم فاطلع على ذلك حذيفة فأما غير هؤلاء فقد قال الله تعالى

(لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا . ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا) ومن ذلك

ترى أنه كانت تذكر له صفاتهم فيتوسمها فى بعضهم كما قال تعالى (ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم)

* * *

وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا إنما نحن مصلحون . ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون .

الفساد هو الكفر والعمل بالمعصية ، فاذا ركبوا المعاصى وقيل لهم لا تفعلوا كذا وكذا قالوا إنما نحن على الهدى مصلحون والأمر موجه إلى أصحاب النفاق فهم مفسدون فى الأرض بمعصيتهم فيها ربهم وركوبهم فيها مانهاهم عن ركوبه وتضييعهم فرائضهم ، وشكهم فى دينه الذى لا يقبل من أحد عملا إلا بالتصديق به والإيقان بحقيقته ومظاهرتهم أهل التكذيب بالله وكتبه ورسله على أولياء الله إذا وجدوا إلى ذلك سبيلا فذلك إفساد المنافقين فى الأرض وهم يحسبون أنهم بفعلهم هذا مصلحون فيها إذ يظنون أنهم يدارون الفريقين من المؤمنين والكافرين ويصطلحون مع هؤلاء وهؤلاء فهم إذا جبهوا بهذا الاتهام قالوا إنما نريد الإصلاح بين الفريقين من المؤمنين وأهل الكتاب وهذا الذى يزعمون أنه إصلاح هو عين الفساد ولكن من جهلهم لا يشعرون بكونه فساداً (ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون)

* * *

وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون .

فاذا قيل للمنافقين آمنوا كما آمن الناس بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت والجنة والنار وغير ذلك مما أخبر المؤمنين به وعنه . وأطيعوا الله ورسوله فى امتثال الأوامر وترك الزواجر (قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء) يعنون .. لعنهم الله .. أصحاب رسول الله ﷺ .

فهم بذلك القول سفهاء والسفيه هو الجاهل الضعيف الرأى القليل المعرفة بمواضع المصالح والمضـــار ولهذا سمى الله سبحانه النساء والصبيان سفهاء فى قوله تعالى (ولاتؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما) .

* * *

(وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزءون • الله يستهزىء بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون) .

فاذا تقابل المنافقون مع المؤمنين أظهروا لهم الإيمان والمصافاة ليشركوهم فيما أصابوا من خير ومغنم (وإذا خلوا إلى شياطينهم) من سادتهم وكبرائهم ورؤسائهم من أحبار اليهود ورءوس المشركين والمنافقين قالوا إنما نحن على مثل ما أنتم عليه (إنما نحن مستهزئون) بالقوم نلعب بهم ونسخر بأصحاب محمد ﷺ ..

والله سبحانه وتعالى فاعل ذلك بهم يوم القيـــامة (الله يستهزىء بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون) (يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا أنظرونا نقتبس من نوركم ، قيـــل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً ، فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب) فهذا من استهزاء الله تعالى بهم يوم القيامة فهو سبحانه يظهر لهم من أحكامه فى الدنيا ما فيه عصمة دمائهم وأموالهم خلاف الذى عنـــده فى الآخرة لهم من العذاب والنكال .. (أيحسبون إنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم فى الخيرات ؟ بل لايشعرون) وقال (سنستدرجهم من حيث لايعلمون) (ويمدهم فى طغيانهم يعمهون) قال بعضهم كلما أحدثوا ذنباً أحدث لهم نعمة وهى فى الحقيقة نقمة (فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فاذا هم مبلسون) .

* * *

(أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين)

بذلوا الهدى ثمنا للضلالة وسواء منهم من كان قد حصل له الإيمان ثم رجع عنه إلى الكفر من الذين قال الله تعالى فيهم (ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم) أو ممن استحبوا الضلالة على الهدى كما يكون حال فريق منهم فأنهم أنواع ، وأقسام اولئك ماربحت صفقتهم فى هذه البيعة وما كانوا راشدين فى صنعهم ذلك فقد خرجوا من الهدى الى الضلالة ومن الجماعة الى الفرقة ومن الأمن الى الخوف ومن السنة الى البدعة فتلك صفات النفاق والمنافقين

* * *

(مثلهم كمثل الذى استوقد نارا فلما أضاءت ماحوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون صم بكم عمى فهم لا يرجعون)

مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً فلما أضاءت ماحوله وانتفع بها وأبصر ، عن يمينه وشماله وتأنس بها ، فبينما هو كذلك إذ طفئت ناره وصار فى ظلام شديد لا يبصر ولا يهتدى وهو مع هذا أصم لا يسمع ، أبكم لا ينطق أعمى لو رأى نوراً ما أبصر ، فلهذا لا يرجع إلى ماكان عليه قبل ذلك ، وذلك تشبيه حكيم لأنهم بإيمانهم اكتسبوا نوراً ثم بنفاقهم ثانياً أبطلوا ذلك النور فوقعوا فى حيرة عظيمة فإنه لا حيرة أعظم من حيرة الدين ففى نور الإيمان يستبين الحلال من الحرام والخير من الشر أما مع الكفر فإنه لا يعرف الحلال من الحرام ولا الخير من الشر فتلك هى ظلمات الضلالة . .

* * *

(أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين . يكاد البرق

يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شيء قدير .

هذا مثل ضربه الله تعالى لضرب آخر من المنافقين وهم قوم يظهر لهم الحق تارة ثم يداخلهم الشك تارة أخرى فقلوبهم فى أحوال شكهم وكفرهم وترددهم (كصيب) كالمطر الذى ينزل من السماء فى حال ظلمات وهى الشكوك والكفر والنفاق ورعد وهو مايزعج القلوب من الخوف فإن من شأن المنافقين الخوف الشديد والفزع كما قال تعالى (يحسبون كل صيحة عليهم) .

(والبرق) هو ما يلمع فى قلوب هؤلاء الضرب من المنافقين فى بعض الأحيان من نور الإيمان فهم بين ظلمات الكفر والشك ولمعان الإيمان فى قلوبهم فى بعض الأحيان ، وانزعاج القلوب الذى يسبب لهم الفزع (يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين) فلا يجدى عنهم حذرهم شيئاً لأن الله محيط بقدرته وهم تحت مشيئته وإرادته كما قال تعالى (هل أتاك حديث الجنود فرعون وثمود بل الذين كفروا فى تكذيب والله من ورائهم محيط) ثم قال (يكاد البرق يخطف أبصارهم) أى لشدته وقوته فى نفسه وضعف بصائرهم وعدم ثباتها للايمان كلما أضاء لهم شيء من طريق الإيمان مشوا فيه واستأنسوا به واتبعوه حتى إذا رانت الشكوك فى قلوبهم المريضة وطغى عليها ظلام الشك وقفوا حائرين وقاموا ليرجعوا إلى الكفر كقوله تعالى (ومن الناس من يعبد الله على حرف فان أصابه خير اطمأن به) وهكذا يكون شأن المنافقين يوم القيامة عندما يعطى الناس النور بحسب إيمانهم فمنهم من يعطى من النور ما يضيء له مسيرة فراسخ وأكثر من ذلك وأقل من ذلك ومنهم من يطفأ نوره تارة ويضيء أخرى ، ومنهم من يمشى على الصراط تارة ويقف أخرى ، ومنهم من يطفأ نوره بالكلية وهم الخلص من المنافقين الذين قال الله تعالى فيهم (يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا أنظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً) وقال فى حق المؤمنين (يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجرى من تحتها الأنهار) وقال تعالى (يوم لا يخزى الله النبى والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبايمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شيء قدير .)

ذكر الحديث الوارد فى ذلك

عن قتـــادة رضى الله عنه فى قوله تعالى (يوم ترى المؤمنين والمؤمنات) الآية . أن نبى الله ﷺ كان يقول من المؤمنين من يضىء نوره من المدينـة إلى عدن أو دون ذلك حتى أن من المؤمنين من لا يضىء نوره إلا موضع قدميه .

وعن عبـد الله بن مسعود أن (نورهم يسعى بين أيديهم) قال على قدر أعمالهم يمرون على الصراط منهم من نوره مثـل الجبل ومنهم من نوره مثل النخلة وأدناهم نوراً من نوره فى إبهامه يتقد مرة ويطفأ أخرى .

أقسام الناس

من ذلك ترى أن الناس ، أقسام : مؤمنون خلص وهم الموصوفون بالآيات الأربع فى أول البقرة وكفار خلص وهم الموصوفون بالآيتين بعدها ، ومنافقون وهم قسمان خلص وهم المضروب لهم المثل النارى ، ومنافقون يترددون تارة يظهر لهم لمع الإيمان وتارة يخبو وهم أصحاب المثل المائى وهم أخف حالا من الذين قبلهم .

من سورة النور

وهذا المقام يشبه من بعض الوجوه ماذكر فى سورة النور من ضرب مثل المؤمن وما جعل الله فى قلبه من الهدى والنور بالمصباح فى الزجاجة التى كأنها كوكب درى وهى قلب المؤمن المفطور على الإيمان واستمداده من الشريعة الخالصة الصافية الواصلة إليه من غير كدر ولا تخليط كما سيأتى فى موضعه إن شاء الله .

ثم ضرب مثل العباد من الكفار الذين يعتقدون أنهم على شىء وليسوا على شىء وهم أصحاب الجهل المركب فى قوله تعالى (والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا) .

ثم ضرب مثل الكفار الجهال الجهل البسيط وهم الذين قال تعالى فيهم (أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض)

أصناف المؤمنين وأصناف الكافرين

ويتقرر من مجموع الآيات الكريمات أن المؤمنين صنفان مقربون وأبرار وأن الكافرين صنفان دعاة ومقلدون وأن المنافقين أيضاً صنفان منافق خالص ومنافق فيه

شعبة من نفاق كما جاء فى الحديث « ثلاث من كن فيه كان منافقاً خالصاً ومن كانت فيه واحدة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : من إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان » استدلوا بهذا على أن الإنسان قد تكون فيه شعبة من إيمان وشعبة من نفاق .

وعن أبى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ القلوب أربعة قلب أجرد فيه مثل السراج يزهر وقلب أغلف مربوط على غلافه وقلب منكوس وقلب مصفح ، فأما القلب الأجرد فقلب المؤمن فسراجه فيه نوره ، وأما القلب الأغلف فقلب الكافر وأما القلب المنكوس فقلب المنافق الخالص عرف ثم أنكر وأما القلب المصفح فقلب فيه إيمان ونفاق . ومثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدها الماء الطيب ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدها القيح والدم فأى المادتين غلبت على الأخرى غلبت عليه »

* * *

وقوله تعالى (ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شىء قدير) فقد وصف الله تعالى نفسه بالقدرة على كل شىء فى هذا الموضع لأنه حذر المنافقين بأسه وسطوته وأخبرهم أنه بهم محيط . وعلى إذهاب أسماعهم وأبصارهم قدير .

* * *

يأيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون . الذى جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون

شرح تبارك وتعالى فى بيان وحدانية ألوهيته بأنه تعالى هو المنعم على عبيده بإخراجهم من العدم إلى الوجود وإسباغه عليهم النعم الظاهرة والباطنة بأن جعل لهم الأرض كالفراش مقررة موطأة مثبتة بالرواسى الشامخات والسماء بناء وهو السقف كما قال تعالى (وجعلنا السماء سقفاً محفوظا وهم عن آياتها معرضون) وأنزل لهم من السماء سحاباً فى وقته عند احتياجهم إليه فأخرج لهم به من أنواع الزروع والثمار ماهو مشاهد رزقاً لهم ولأنعامهم كما قرر هذا فى غير موضع من القرآن . فهو سبحانه الخالق الرازق

مالك الدار وساكنيها ورازقهم فبهذا يستحق أن يعبد وحده ولا يشرك به غيره ولهذا قال (فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون)

وعن ابن مسعود قال : قلت يارسول الله أى الذنب أعظم عند الله ؟

قال « أن تجعل لله أنداداً وهو خلقك » وفى حديث آخر « لايقولن أحدكم ماشاء الله وشاء فلان ولكن ليقل ماشاء الله ثم شاء فلان » .

ألوانه من الشرك الخفى

وعن ابن عباس قال : قال رجل للنبى ﷺ ماشاء الله وشئت فقال « أجعلتنى لله نداً ؟ قل ماشاء الله وحده » وهذا كله صيانة وحماية لجناب التوحيد والله أعلم

(فلا تجعلوا لله أنداداً) فذلك هو الشرك وهو أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء فى ظلمة الليل وهو أن يقول والله وحياتك يافلان وحياتى ، ويقول لولا كلبة هذا لأتانا اللصوص البارحة ولولا البط فى الدار لأتى اللصوص وقول الرجل لصاحبه ماشاء الله وشئت .

حديث عن بنى اسرائيل

عن الحارث الأشعرى أن نبى الله ﷺ قال « إن الله عز وجل أمر يحيى بن زكريا عليه السلام بخمس كلمات أن يعمل بهن وأن يأمر بنى إسرائيل أن يعملوا بهن وأنه كاد أن يبطىء بها فقال له عيسى عليه السلام إنك قد أمرت بخمس كلمات أن تعمل بهن وتأمر بنى إسرائيل أن يعملوا بهن فأما أن تبلغهن وأما أن أبلغهن

فقال يا أخى إنى أخشى إن سبقتنى أن أعذب أو يخسف بى قال فجمع يحيى بن زكريا بنى إسرائيل فى بيت المقدس حتى امتلأ المسجد فقعد فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

إن الله أمرنى بخمس كلمات أن أعمل بهن وأمركم أن تعملوا بهن أولهن أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا فان ذلك كمثل رجل اشترى عبداً من خالص ماله بورق أو ذهب فجعل يعمل ويؤدى غلته الى غير سيده فأيكم يسره أن يكون عبده كذلك ، وأن الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولاتشركوا به شيئا .. وأمركم بالصلاة فان صليتم فلاتلتفتوا وأمركم بالصيام فإن مثل ذلك كمثل رجل معه صرة من مسك فى عصابة كلهم يجد ريح المسك وإن خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك ، وأمركم بالصدقة فإن مثل

ذلك كمثل رجل أسره العدو فشدوا يديه إلى عنقه وقدموه ليضربوا عنقه وقال لهم هل لكم أن أفتدى نفسى منكم فجعل يفتدى نفسه منهم بالقليل والكثير حتى فك نفسه ، وأمركم بذكر الله كثيراً وإن مثل ذلك كمثل رجل طلبه العدو سراعا فى أثره فأتى حصنا حصينا فتحصن فيه ، وإن العبد أحصن مايكون من الشيطان إذا كان فى ذكر الله قال.. وقال رسول الله ﷺ « وأنا أمركم بخمس الله أمرنى بهن: الجماعة والسمع والطاعة والهجرة والجهاد فى سبيل الله فإنه من خرج من الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه إلا أن يراجع ومن دعا بدعوى جاهلية فهو من جثى جهنم » قالوا يارسول الله وإن صام وصلى فقال « وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم فادعوا المسلمين بأسمائهم على ما سماهم الله عز وجل المسلمين المؤمنين عباد الله » .

وهذا الحديث الكريم الشاهد منه فى قول الله تعالى « وأن الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولاتشركوا به شيئا » وهـــذه الآية دالة على توحيده تعالى بالعبادة وحده لاشريك له وقد استدل به كثير من المفسرين كالرازى وغيره على وجود الصانع تعالى فأن من تأمل هذه الموجودات السفلية والعلوية واختلاف أشكالها وألوانها وطباعها ومنافعها ووضعها فى مواضع النفع بها ، عـــلم قدرة خالقها وحكمته وعلمه وإتقانه وعظيم سلطانه ، كما قال بعض الأعراب وقد سئل ما الدليل على وجود الرب تعالى ؟ فقال ياسبحان الله إن البعر ليدل على البعير، وإن أثر الأقدام لتدل على المسير، فسماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ، وبحـــار ذات أمواج ؟ ألا يدل ذلك على وجود اللطيف الخبير ..؟

وحكى الرازى عن الإمام مالك أن الرشيد ساله عن ذلك فاستدل له باختلاف اللغات والأصوات والنغمات ، وعن أبى حنيفة أن بعض الزنادقة سألوه عن وجود البارى تعالى فقال لهم .. دعونى فانى مفكر فى أمر قد أخبرت عنه ذكروا لى أن سفينة فى البحر موقرة فيها أنواع من المتاجر وليس بها أحد يحرسها ولا يسوقها وهى مع ذلك تذهب وتجىء وتسير بنفسها وتخترق الأمواج العظام حتى تتخلص منها وتسير حيث شاءت بنفسها من غير أن يسوقها أحد ، فقالوا هذا شىء لايقوله عاقل ، فقال ويحكم هذه الموجودات بما فيها من العالم العلوى والسفلى وماشتملت عليه من الأشياء المحكمة ليس لها صانع .؟ فبهت القوم ورجعوا إلى الحق وأسلموا على يديه .

* * *

وعن الشافعى أنه سئل عن وجود الصانع فقال : هذا ورق التوت طعمه واحد

تأكله الدود فيخرج منه الأبريسم وتاكله النحل فيخرج منه العسل وتأكله الشاة والبقر والأنعام فتلقيه بعراً وروثا ، وتأكله الظباء فيخرج منها المسك وهوشيء واحد

* * *

وعن الإمام احمد بن حنبل أنه سئل عن ذلك فقال ههنا حصن حصين أملس ليس له باب ولا منفذ ظاهره كالفضة البيضاء وباطنه كالذهب الأبريز فبينا هو كذلك إذ انصدع جداره فخرج منه حيوان سميع بصير ذو شكل حسن وصوت مليح (يعنى بذلك البيضة إذا خرجت منها الدجاجة)

* * *

وسئل عن ذلك أبو نواس فأنشد :

تأمل فى نبات الأرض وانظر.. إلى آثار ما صنع المليك
عيون من لجين شاخصات بأحداق هى الذهب السبيك
على قضب الزبرجد شاهدات بأن الله ليس له شريك

* * *

وقال آخرون من تأمل هذه السموات فى ارتفاعها وإتساعها وما فيها من الكواكب الكبار والصغار النيرة من السيارة ومن الثوابت وشاهدها كيف تدور مع الفلك العظيم فى كل يوم وليلة دويرة . ولها فى أنفسها سير يخصها ، ونظر إلى البحار المكتنفة للأرض من كل جانب والجبال الموضوعة فى الأرض لتقر ويسكن ساكنوها مع اختلاف أشكالها وألوانها كما قال تعالى (ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود . ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك . إنما يخشى الله من عباده العلماء) وكذلك هذه الأنهار السارحة من قطر إلى قطر للمنافع وما ذرأ فى الأرض من الحيوانات المتنوعة والنبات المختلف الطعوم مع إتحاد طبقة الأرض والماء استدل على وجود الصانع وقدرته العظيمة وحكمته ورحمته بخلقه ولطفه بهم وإحسانه إليهم وبره بهم لا إله غيره ولا رب سواه عليه توكلت وإليه أنيب ..

والآيات فى القرآن الدالة على هذا المقام كثيرة جداً .

* * *

(وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وأدعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين . فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين)

شرع تعالى فى تقرير النبوة بعد أن قرر أنه لا إله إلا هو فقال مخاطباً للكافرين (وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا) يعنى محمداً ﷺ فأتوا بسورة من مثل ما جاء به إن زعمتم أنه من عند غير الله فعارضوه بمثل ماجاء به واستعينوا على ذلك بمن شئتم من دون الله ممن يساعدونكم على ذلك ممن تدعون أنهم شركاءكم أو من الحكام الفصحاء فانكم لاتستطيعون ذلك .. وقد تحداهم الله فى غير موضع من القرآن فقال فى سورة سبحان (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) .

وقد نزلت الآيات بذلك فى مكة والمدينة وقد عجز القوم عن ذلك ولهذا قال تعالى (فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا) أى ولن تفعلوا ذلك أبداً فى المستقبل وهذه أيضا معجزة أخرى وذلك أنه أخبر خبراً جازما قاطعاً مقدماً غير خائف ولا مشفق أن هذا القرآن لا يعارض بمثله أبد الآبدين ودهر الداهرين ، وكذلك وقع الأمر ولم يعارض إلى زماننا هذا ولا يمكن وأنى يتأتى ذلك والقرآن كلام الله خالق كل شىء وكيف يشبه كلام الخالق كلام المخلوقين ومن تدبر القرآن وجد فيه من وجوه الإعجاز فنونا ظاهرة وخفية من حيث اللفظ ومن جهة المعنى قال الله تعالى (الر ، كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير) فأحكمت ألفاظه وفصلت معانيه فصيح لايجارى ولايدانى فقد أخبر عن مغيبات ماضية كانت ووقعت طبق ما أخبر سواء بسواء وأمر بكل خير ونهى عن كل شر كما قال تعالى (وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلا) أى صدقا فى الأخبار وعدلا فى الأحكام فكله حق وصدق وعدل وهدى ليس فيه مجازفة ولا كذب ولا افتراء كما يوجد فى أشعار العرب وغيرهم من الأكاذيب والمجازات التى لا يحسن شعرهم إلا بها كما قيل فى الشعر إن أعذبه أكذبه وتجد القصيدة الطويلة المديدة قد استعمل غالبها فى وصف النساء أو الخيل أو الخمر أو فى مدح شخص معين أو فرس أو شىء من المشاهدات المتعينة التى لاتفيد شيئا ثم تجد بيتاً أو بيتين أو أكثر هى

من بيوت القصيد وسائرها هذر لا طائل تحته ، وأما القرآن فجميعه فصيح فى غاية نهايات البلاغة عند من يعرف ذلك تفصيلا وإجمالا من فهم كلام العرب وتصاريف التعبير ، فإنه إن تأملت أخباره وجدتها فى غاية الحلاوة سواء كانت مبسوطة أو وجيزة وسواء تكررت أم لا وكلما تكرر حلا وعلا ، لا يخلق عن كثرة الرد ، ولا يمل منه العلماء وإن أخذ فى الوعيد والتهديد جاء منه ما تقشعر منه الجبال الصم الراسيات فما ظنك بالقلوب الفاهمات ، وإن وعد أتى بما يفتح القلوب والآذان ، ويشوق إلى دار السلام ومجاورة عرش الرحمن ، كما قال فى الترغيب (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون) وقال (وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون) وقال فى الترهيب (أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر) (أأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض فاذا هى تمور . أم أمنتم من فى السماء أن يرسل عليكم حاصباً فستعلمون كيف نذير) وقال فى الزجر (فكلا أخذنا بذنبه) وقال فى الوعظ (أفرأيت إن متعناهم سنين ثم جاءهم ما كانوا يوعدون ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون) إلى غير ذلك من أنواع الفصاحة والبلاغة والحلاوة . . وإن جاءت الآيات فى الأحكام والأوامر والنواهى اشتملت على الأمر بكل معروف حسن نافع طيب محبوب ، والنهى عن كل قبيح رذيل دنىء ، كما قال ابن مسعود وغيره من السلف إذا سمعت الله تعالى يقول فى القرآن يا أيها الذين آمنوا ، فأرعها سمعك فإنها خير يأمر به أو شر ينهى عنه ولهذا قال تعالى (يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم) . . ولهذا ثبت فى الصحيحين عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال « ما من نبى من الأنبياء إلا قد أعطى من الآيات ما آمن على مثله البشر وإنما كان الذى أوتيته وحياً أوحاه الله إلى فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة » وقوله وإنما كان الذى أوتيه وحياً أى الذى اختصصت به من بينهم هذا القرآن المعجز للبشر أن يعارضوه .

* * *

وقوله تعالى (فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين) قيل إنها حجارة من كبريت خلقها الله يوم خلق السموات والأرض ووصفها تعالى بقوله (كلما خبت زدناهم سعيراً) وقد جاء فى الحديث الشريف « كل مؤذ فى النار » وقد فسر الحديث بمعنيين أحدهما أن كل من آذى الناس دخل النار والآخر أنه فى النار كل ما يتأذى به المعذبون فيها ومن ذلك وجود السباع والهوام وغير ذلك لزيادة العذاب .

وفى قوله تعالى عن النار (أعدت للكافرين) استدل بعض المفسرين من كلمة « أعدت » أن النار موجودة الآن أرصدت وهيئت وقد وردت فى ذلك أحاديث كثيرة منها : « تحاجت الجنة والنار » . . ومنها « استأذنت النار ربها فقالت رب أكل بعضى بعضا فأذن لها بنفسين نفس فى الشتاء ونفس فى الصيف »

وحديث ابن مسعود سمعنا وجبة فقلنا ماهذه فقال رسول الله ﷺ « هذا حجر ألقى به من شفير جهنم منذ سبعين سنة الآن وصل إلى قعرها » .

☆ ☆ ☆

(وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هذا الذى رزقنا من قبل وأتوا به متشابهاً ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون)

لما ذكر تعالى ما أعده لأعدائه من الأشقياء الكافرين به وبرسله من العذاب والنكال عطف بذكر حال أوليائه من السعداء المؤمنين به وبرسله الذين صدقوا إيمانهم بأعمالهم الصالحة . . وهذا معنى تسمية القرآن مثانى على أصح أقوال العلماء كما سنبسطه إن شاء الله فى موضعه وهو أن يذكر الإيمان ويتبع بذكر الكفر أو عكسه أو حال السعداء ثم الأشقياء أو عكسه ، وحاصله ذكر الشىء ومقابله .

(وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار) أى من تحت أشجارها وغرفها . . وعن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال « وأنهار الجنة تفجر من تحت تلال أو من تحت جبال المسك » وقوله تعالى (كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذى رزقنا من قبل) . . وعن يحيى بن أبى كثير قال يؤتى أحدهم بالصحفة من الشىء فيأكل منها ثم يؤتى بأخرى فيقول هذا الذى أتينا به من قبل فتقول الملائكة كل فاللون واحد والطعم مختلف وهو قول الله تعالى (وأتوا به متشابها أى يشبه بعضه بعضا ويختلف فى الطعم وقال بعضهم أى يشبه ثمر الدنيا غير أن ثمر الجنة أطيب وقال بعضهم عن ابن عباس . . لايشبه شىء مما فى الجنة ما فى الدنيا إلا فى الأسماء ولذلك فسروا قوله تعالى (وأتوا به متشابها) إنهم يعرفون أسماءه كما كانوا

فى الدنيا التفاح بالتفاح والرمان بالرمان وليس هو مثله فى الطعم .

* * *

وقوله تعالى (ولهم فيها أزواج مطهرة) يعنى من الحيض والغائط والبول والنخام والبزاق والمنى والولد ومن الأذى ومن المأثم .. قيل وكذلك خلقت حواء عليها السلام فلما عصت قال الله تعالى إنى خلقتك مطهرة وسأدميك كما أدميت هذه الشجرة وهو قول غريب .

* * *

وقوله تعالى (وهم فيها خالدون) فذاك تمام السعادة فأنهم على هذا النعيم فى مقام أمين من الموت والانقطاع فلا آخر له ولا انقضاء بل نعيم سرمدى أبدى على الدوام والله المسئول أن يحشرنا فى زمرتهم إنه جواد كريم بر رحيم .

* * *

(إن الله لا يستحى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا يضل به كثيراً ويهدى به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض أولئك هم الخاسرون .

عن ابن مسعود عن ناس من الصحابه . لما ضرب الله هذين المثلين للمنافقين يعنى قوله تعالى (مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً) وقوله (أو كصيب من السماء) الآيات قال المنافقون : الله أعلى وأجل من أن يضرب هذه الأمثال .

وروى أيضا أنه لما ذكر الله تعالى العنكبوت والذباب قال المشركون : ما بال العنكبوت والذباب يذكران ؟ فأنزل الله تعالى (إن الله لا يستحى أن يضرب مثلا ما

بعوضة فما فوقها) . . قال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس فى هذه الآيه قال هذا مثل ضربه الله الدنيا فأن البعوضة تحيا ما جاعت فاذا سمنت ماتت وكذلك مثل هؤلاء القوم الذين ضرب لهم هذا المثل فى القرآن إذا امتلأوا من الدنيا ريا أخذهم الله عند ذلك ثم تلا (فلما نسوا ماذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء) .

وفى الحديث « لوأن الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة لما سقى كافراً منها شربة ماء » فبدأ الله سبحانه بضرب الأمثال إبتداء من أحقر شيء فى الدنيا وهو البعوضة وأن الله سبحانه لم يستنكف عن خلقها فهو لايستنكف عن ضرب الأمثال بها كما ضرب المثل بالذباب والعنكبوت، فى قوله تعالى (يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لايستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب) وقال (مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون) .

وكما ضرب الله سبحانه الأمثال بأقل المخلوقات ضرب الأمثال بما فوق ذلك كالعبد المملوك الذى لايقدر على شيء ، والأبكم الذى هو كل على مولاه ، والشجرة الطيبة والشجرة الخبيثة .

قال بعض السلف .. إذا سمعت المثل فى القرآن فلم أفهمه بكيت على نفسى لأن الله تعالى يقول (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون) وفى قوله تعالى (إن الله لايستحى أن يضرب مثلاً ما بعوضة فمافوقها) فإن المؤمنين يؤمنون بالأمثال صغيرها وكبيرها ويعلمون أنه كلام الرحمن وأنه من عند الله (فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم) يعنى هذا المثل (وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا) وهذا قول الذين فى قلوبهم مرض والكافرين وبذلك يفتنون كما قال تعالى فى سورة المدثر (وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا) وكذلك قال تعالى هنا فى السياق (يضل به كثيراً ويهدى به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين) .

أى يضل به كثيراً من المنافقين ويهدى به كثيراً من المؤمنين فيزيد هؤلاء ضلالة إلى ضلالتهم لتكذيبهم بما قد علموه حقا يقيناً من المثل الذى ضربه الله ويهدى الله به أى بالمثل كثيراً من أهل الإيمان والتصديق فيزيدهم هدى إلى هداهم وإيمانا إلى إيمانهم

لتصديقهم بما قد علموه حقا يقينا إنه موافق لما ضربه الله مثلا وإقرارهم به وذلك هداية من الله لهم به .

والفاسق يشمل الكافر والعاصى ولكن فسق الكافر أشد وأفحش والمراد به من الآية الفاسق الكافر والله أعلم بدليل أنه وصفهم بقوله تعالى (الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض أولئك هم الخاسرون) .

* * *

وهذه الصفات التى ذكرتها الآية هى صفات الكفار المباينة لصفات المؤمنين كما قال تعالى فى سورة الرعد (أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى ، إنما يتذكر أولو الألباب . الذين يوفون بالعهد ولا ينقضون الميثاق . والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب) الآيات إلى أن قال (والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ماأمرالله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار) .

* * *

وقد اختلف أهل التفسير فى معنى العهد الذى وصف هؤلاء الفاسقين بنقضه فقال بعضهم هو وصية الله إلى خلقه وأمره إياهم بما أمرهم به من طاعته ونهيه إياهم عما نهاهم عنه من معصيته فى كتبه وعلى لسان رسله .. ونقضهم ذلك هو تركهم العمل به .

وقال آخرون بل هى فى كفار أهل الكتاب والمنافقين منهم ، وعهد الله هو ما أخذه الله عليهم فى التوراة من العمل بما فيها واتباع محمد ﷺ إذا بعث والتصديق به ونقضهم ذلك هو جحودهم به بعد إعطائهم الله من أنفسهم الميثاق ليبيننه للناس ولا يكتمونه فأخبر تعالى أنهم نبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا .

وقال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبى العالية فى قوله تعالى (الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه . . إلى قوله . . أولئك هم الخاسرون) قال هى ست خصال من المنافقين إذا كانت فيهم الظهرة على الناس أظهروا هذه الخصال :

إذا حدثوا كذبوا

وإذا وعدوا أخلفوا

وإذا أؤتمنوا خانوا
ونقضوا عهد الله من بعد ميثاقه
وقطعوا ما أمر الله به أن يوصل
وأفسدوا فى الأرض

وقوله تعالى (ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل) قيل المراد به صلة الأرحام والقرابات كما فسره قتادة كقوله تعالى (فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم) فكل ما أمر الله بوصله وفعله قطعوه وتركوه (أولئك هم الخاسرون) قيل فى الآخرة وهذا كما قال تعالى (أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار) .

* * *

(كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون . هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شىء عليم) .

يقول تعالى محتجاً على وجوده وقدرته وأنه الخالق المتصرف فى عباده (كيف تكفرون بالله) تجحدون وجوده وتعبدون غيره وقد كنتم عدماً فأخرجكم إلى الوجود كما قال تعالى (أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون) .

وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه (قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا) قال هى التى فى البقرة (وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم) أى كنتم فى أصلاب آبائكم لم تكونوا شيئاً حتى خلقكم ثم يميتكم موتة الحق ثم يحييكم حين يبعثكم . . وفى تفسير لابن عباس قال كنتم تراباً قبل أن يخلقكم فهذه ميتة ثم أحياكم فخلقكم فهذه حياة ثم يميتكم فترجعون إلى القبور فهذه ميتة أخرى ثم يبعثكم يوم القيامة فهذه حياة أخرى . فهذه ميتتان وحياتان فذلك كقوله (قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لاريب فيه) .

* * *

(هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع

سموات) وفى ذلك دلالة على أنه سبحانه ابتدأ بخلق الأرض أولا ثم خلق السموات سبعاً وهذا شأن البناء أن يبدأ بعمارة أسافله ثم أعاليه بعـــد ذلك . . كما قال فى آية السجدة (قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين . وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين . ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين . فقضاهن سبع سموات فى يومين وأوحى فى كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم) فهذه آيات دالة على أن الأرض خلقت قبل السماء وليس فى ذلك كما نعلم نزاعا بين العلماء إلا ماروى عن قتادة أن السماء خلقت قبل الأرض وقد توقف فى ذلك القرطبى فى تفسيره لقوله تعـــالى (أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها . رفع سمكها فسواها . وأغطش ليلها وأخرج ضحاها . والأرض بعد ذلك دحاها . أخرج منها ماءها ومرعاها والجبال أرساها) قالوا فذكر خلق السماء قبل الأرض إنما دحيت بعد خلق السماء وكذلك أجاب غير واحد من علماء التفسير قديما وحديثا وفسر الدحى بإخراج ما كان مودعا فيها بالقوة إلى الفعل لما اكملت سورة المخلوقات الأرضية ثم السماوية دحى بعـــد ذلك الأرض فأخرجت ما كان مودعا فيها من المياه فنبتت النباتات على اختـــلاف أصنافها وصفاتها وألوانها وأشـــكالها وكذلك جرت هذه الأفلاك فدارت بما فيها من الكواكب والثوابت والسيارة والله أعلم .

وعن أبى هريرة قال أخذ رسول الله ﷺ بيدى فقال « خلق الله التربة يوم السبت وخلق الجبال فيها يوم الأحد وخلق الشجر فيهـــا يوم الأثنين وخلق المكروه يوم الثلاثاء وخلق النور يوم الأربعاء وبث فيها الدواب يوم الخميس وخلق آدم بعد العصر يوم الجمعة من آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر إلى الليل » وهذا الحديث من غرائب صحيح مسلم .

* * *

وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم مالا تعلمون

يخبر تعالى بامتنانه على بنى آدم بتنويهه بذكرهم فى الملأ الأعلى قبل إيجادهم فقال تعالى (وإذ قال ربك للملائكة) أى واذكر يامحمد إذ قال ربك للملائكة واقصص على قومك (إنى جاعل فى الأرض خليفة) أى قوما يخلف بعضهم بعضاً قرنا بعد قرن وجيلا بعد جيل كما قال تعالى (هو الذى جعلكم خلائف الأرض) وقال (فخلف من بعدهم خلف) وقال بعض المفسرين أنه ليس المراد ههنا بالخليفة آدم عليه السلام فقط إذ لو كان ذلك لما حسن قول الملائكة (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء) فإنهم أرادوا أن من هذا الجنس البشرى من يفعل ذلك وكأنهم علموا ذلك بعلم خاص أو بما فهموه من الطبيعة البشرية فأنه أخبرهم أنه يخلق هذا الصنف من صلصال من حمإ مسنون .. أو أنهم قاسوهم على من سبق .. وقول الملائكة هذا ليس على وجه الاعتراض على الله ولا على وجه الحسد لبنى آدم كما قد يتوهمه بعض المفسرين وقد وصفهم الله تعالى بأنهم لا يسبقونه بالقول أى لا يسألونه شيئا لم يأذن لهم فيه ، وإنما هو سؤال استعلام واستكشاف عن الحكمة فى ذلك يقولون ياربنا ما الحكمة فى خلق هؤلاء مع أن منهم من يفسد فى الأرض فان كان المراد عبادتك فنحن نسبح بحمدك و نقدس لك أى نصلى لك كما سيأتى .. قال الله تعالى مجيبا لهم عن هذا السؤال (إنى أعلم مالا تعلمون) أعلم من المصلحة الراجحة فى خلق هذا الصنف على المفاسد التى ذكرتموها مالا تعلمون أنتم فإنى سأجعل فيهم الأنبياء وأرسل منهم الرسل ويوجد فيهم الصديقون والشهداء والصالحون والعباد والزهاد والأولياء والأبرار والمقربون والعلماء العاملون والخاشعون والمحبون له تبارك وتعالى المتبعون رسله صلوات الله وسلامه عليهم ، وقد ثبت فى الصحيح أن الملائكة إذا صعدت إلى الرب تعالى بأعمال عباده يسألهم وهو أعلم كيف تركتم عبادى ؟ فيقولون آتيناهم وهم يصلون وتركناهم وهم يصلون .. وذلك لأنهم يتعاقبون فينا ويجتمعون فى صلاة الصبح وفى صلاة العصر فيمكث هؤلاء ويصعد أولئك بالأعمال كما قال عليه الصلاة والسلام « يرفع إليه عمل الليل قبل النهار وعمل النهار قبل الليل) فقولهم آتيناهم وهم يصلون وتركناهم وهم يصلون من تفسير قوله لهم (إنى أعلم مالا تعلمون »

* * *

وقد استدل القرطبى وغيره بهذه الآية على وجوب نصب الخليفة ليفصل بين الناس فيما اختلفوا فيه ويقطع تنازعهم وينتصر لمظلومهم من ظالمهم ويقيم الحدود ويزجر عن تعاطى الفواحش إلى غير ذلك من الأمور المهمة التى لا يمكن إقامتها إلا بالإمام ومالا

يتم الوجب إلا به فهو واجب ، والأمامة تنال بالنص كما يقول طائفة من أهل السنة فى أبى بكر أو بالإيماء اليه كما يقول آخرون منهم أو باستخلاف الخليفة آخر بعده كما فعل الصديق بعمر بن الخطاب أو بتركه شورى فى جماعة صالحين كذلك كما فعله عمر أو باجتماع أهل الحل والعقد على مبايعته او بمبايعة واحد منهم له فيجب التزامها عند الجمهور والله أعلم .. أو يقهر واحد النـــاس على طاعته فتجب لئلا يؤدى ذلك إلى الشقاق والاختلاف وقد نص عليه الشافعى، وهل يجب الإشهـاد على عقد الإمامة ؟ فيه خلاف .

فمنهم من قال لايشترط وقيل بلى ويكفى شاهدان وقال الجبائى يجب أربعة وعاقد ومعقود له كما ترك عمر رضى الله عنه الأمرشورى بين ستة فوقع الأمر على عاقد وهو عبد الرحمن بن عوف ومعقود له وهوعثمان .. واستنبط وجوب الأربعة الشهود من الأربعة الباقين وفى هذا نظر والله أعلم .

* * *

ويجب أن يكون ذكراً حراً بالغاً عاقلا مسلما عدلا مجتهداً بصيراً سليم الأعضاء خبيراً بالحروب والآراء قرشيا على الصحيح ولا يشترط الهاشمى ولا المعصوم من الخطأ خلافا للغلاة والروافض ...،ولو فسق الإمام هل ينعزل أم لا؟

فيه خلاف .. والصحيح أنه لا ينعزل لقوله عليه الصلاة والسلام « إلا أن تروا كفراً بواحا عندكم من الله فيه برهان »

وهل له أن يعزل نفسه ؟

فيه خلاف .. وقد عزل الحسن بن على رضى الله عنه نفسه وسلم الأمر إلى معاوية لكن هذا لعذر وقد مدح على ذلك .فأما نصب إمامين فى الأرض أو أكثر فلا يجوز لقوله عليه الصلاة والسلام « من جاءكم وأمركم جميع يريد أن يفرق بينكم فاقتلوه كائنا من كان »

وهذا قول الجمهور

وقد حكى الإجماع على ذلك غير واحد منهم .. وقال بعضهم يجوز إثنان فأكثر كما كان على ومعاوية إمامين واجبى الطاعة قالوا وإذا جاز بعث نبيين فى وقت واحد وأكثر جاز ذلك فى الإمامة لأن النبوة أعلى رتبة بلا خلاف ، وحكى إمام الحرمين عن

الاســـتاذ أبى إسحاق أنه جوز نصب إمامين فأكثر إذا تباعدت الأقطار واتسعت الأقاليم بينهما والله أعلم .

* * *

وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم . قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض وأعـــلم ما تبدون وما كنتم تكتمون

* * *

هذا مقام ذكر الله تعالى فيه شرف آدم على الملائكة بما اختصه من علم أسماء كل شىء دونهم ، وهذا كان بعد سجودهم له ، وإنما قدم هذا الفصل على ذاك لمناسبة ما بين هذا المقام وعدم علمهم بحكمة خلق الخليفة حين سألوا عن ذلك فأخبرهم تعالى بأنه يعلم مالا يعلمون ، ولهذا ذكر الله هذا المقام عقب هذا ليبين لهم شرف آدم بما فضل به عليهم فى العلم فقال تعالى (وعلم آدم الأسماء كلها) الأسماء التى يتعارف بها الناس إنسان ودواب وسماء وأرض وسهل وبحر وخيل وأشباه ذلك من الأمم وغيرها .

واختار ابن جرير أنه علمه أسماء الذرية لأنه قال (ثم عرضهم) وهذا لا ينفى أنه علمه معهم غيرهم ويعبر عن الجميع بصيغة من يعقل للتغليب كما قال تعالى (والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشى على بطنه ومنهم من يمشى على رجلين ومنهم من يمشى على أربع يخلق الله ما يشاء إن الله على كل شىء قدير)

والصحيح أنه علمه أسماء الأشياء كلها ذواتها وصفاتها وأفعالها كما قال ابن عباس. ولهذا قال البخارى فى تفسير هذه الآية فى كتاب التفسير من صحيحه .. عن أنس ابن مالك عن النبى ﷺ قال « يجتمع المؤمنون يوم القيامة فيقولون لو استشفعنا إلى ربنا

فيأتون آدم فيقولون أنت أبو الناس خلقك الله بيده وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شيء فاشفع لنا إلى ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا ، فيقول لست هنا لكم ويذكر ذنبه فيستحي ، ائتوا نوحاً فإنه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض ، فيأتونه فيقول لست هنا لكم ، ويذكر سؤاله ربه ما ليس له به علم فيستحي . فيقول ائتوا خليل الرحمن فيأتونه فيقول لست هنا لكم ، فيقول ائتوا موسى عبداً كلمه الله وأعطاه التوراة ، فيأتونه فيقول لست هنا لكم ويذكر قتل النفس بغير نفس فيستحي من ربه . فيقول ائتوا عيسى عبد الله ورسوله وكلمة الله وروحه فيأتونه فيقول لست هنا لكم . ائتوا محمداً عبداً غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فيأتوني فانطلق حتى استأذن على ربي فيأذن لي فاذا رأيت ربي وقعت ساجداً فيدعني ما شاء الله ثم يقال ارفع رأسك وسل تعطه وقل يسمع واشفع تشفع . فأرفع رأسي فأحمده بتحميد يعلمنيه ثم أشفع فيحد لي حداً فأدخلهم الجنة ثم أعود إليه ثم أشفع فيحد لي حداً فأدخلهم الجنة ثم أعود الثالثة ثم أعود الرابعة فأقول ما بقي في النار إلا من حبسه القرآن ووجب عليه الخلود »

فآدم كان على علم بأسماء كل شيء كما علمه ربه ثم عرض سبحانه تلك الأسماء على الملائكة (فقال انبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين) انبئوني بأسماء من عرضته عليكم أيها الملائكة القائلون أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء فاذا كنتم لا تعلمون أسماء هؤلاء الذين عرضت عليكم وأنتم تشاهدونهم فأنتم بما هو غير موجود من الأمور الكائنة التي لم توجد أحرى أن تكونوا غير عالمين

* * *

(قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم) تقديس وتنزيه من الملائكة لله تعالى أن يحيط أحد بشيء من علمه إلا بما شاء ، وأن يعلموا شيئاً إلا ما علمهم الله تعالى ولهذا قالوا (سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك انت العليم الحكيم) العليم بكل شيء الحكيم في خلقك وأمرك وفي تعليمك ما تشاء ومنعك ما تشاء . لك الحكمة في ذلك والعدل التام

عن ابن عباس في تفسير سبحان الله

قال تنزيه الله نفسه عن السوء

وقال عمر لعلى وأصحابه عنده، لا إله إلا الله قد عرفناها فما سبحان الله ؟

فقال له على كلمة أحبها الله لنفسه ورضيها وأحب أن تقال . . وعن عدى قال سأل رجل ميمون بن مهران عن سبحان الله . . قال إسم يعظم الله به ويخاشى به من السوء .

* * *

قوله تعالى (قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون)

لما ظهر فضل آدم عليه السلام على الملائكة عليهم السلام فى سرده ماعلمه الله تعالى من أسماء الأشياء قال الله تعالى للملائكة (ألم أقل لكم أنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون) أى ألم أتقدم إليكم إنى أعلم الغيب الظاهر والخفى كما قال تعالى (وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى) وكما قال إخباراً عن الهدهد أنه قال لسليمان (ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض ويعلم ماتخفون وما تعلنون * الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم)

وقوله سبحانه للملائكة (وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون) أنهم أظهروا بألسنتهم قولهم أتجعل فيها من يفسد فيها ، والذى كانوا يكتمون قولهم لم يخلق ربنا خلقاً إلا كنا أعلم من هذا الخلق وأكرم . فعرفوا أن الله فضل عليهم آدم فى العلم والكرم فلما رأوا ما أعطاه الله اقروا له بالفضل.

* * *

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ .

وهذه كرامة عظيمة من الله تعالى لآدم امتن بها على ذريته حيث أخبر أنه تعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم . وقد دل على ذلك أحاديث أيضاً كثيرة منها حديث الشفاعة المتقدم وحديث موسى عليه السلام « رب أرنى آدم الذى أخرجنا ونفسه من

الجنـــة فلما اجتمع به قال أنت آدم الذى خلقه الله بيده و نفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته » .

* * *

وعن ابن عباس قال :

كان إبليس من حى من أحياء الملائكة يقال لهم الجن خلقوا من نار السموم من بين الملائكة ، وكان اسمه الحارث وكان خازناً من خزان الجنة ، وخلقت الملائكة كلهم من نور غير هذا الحى ، وخلقت الجن الذين ذكروا فى القرآن من مارج من نار وهو لسان النار الذى يكون فى طرفها إذا ألهبت ، وخلق الإنسان من طين فأول من سكن الأرض الجن فأفسدوا فيها وسفكوا الدماء وقتل بعضهم بعضاً . . فبعث الله إليهم إبليس فى جند من الملائكة وهم هذا الحى الذى يقال لهم الجن فقتلهم إبليس ومن معه حتى ألحقهم بجزائر البحور وأطراف الجبال . فلما فعل إبليس ذلك اغتر فى نفسه فقال قد صنعت شيئاً لم يصنعه أحد فاطلع الله على ذلك من قلبه ولم يطلع عليه الملائكة الذين كانوا معه فقال الله تعالى للملائكة الذين كانوا معه ، إنى جاعل فى الأرض خليفة فقالت الملائكة مجيبين له . أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء كما أفسدت الجن وسفكت الدماء وإنما بعثتنا عليهم لذلك ؟ فقال الله تعالى « إنى أعلم ما لا تعلمون » يقول إنى قد اطلعت من قلب إبليس على ما لم تطلعوا عليه من كبره واغتراره ثم أمر بتربة آدم فرفعت ، فخلق الله آدم من طين لازب ، واللازب اللازج الطيب من حمإ مسنون منتن ، وإنما كان حمأ مسنوناً بعد التراب فخلق منه آدم بيده فمكث أربعين ليلة جسداً ملقى وكان إبليس يأتيه فيضربه برجله فيصلصل فهو قوله تعالى (من صلصال كالفخار) ثم يدخل فى فيه ويخرج من دبره ثم يقول لست شيئاً للصلصلة ولشىء ما خلقت ولئن سلطت عليك لأهلكنك ولئن سلطت على لأعصينك . فلما نفخ الله فيه من روحه أتت النفخة من قبل رأسه فجعل لا يجرى شىء منها فى جسده إلا صار لحماً ودماً . فلما انتهت النفخة إلى سرته نظر إلى جسده فأعجبه ما رأى من جسده فذهب لينهض فلم يقدر فهذا قوله تعالى (وخلق الإنسان عجولا) ضجراً لا صبر له على سراء ولا ضراء فلما تمت النفخة فى جسده عطس فقال « الحمد لله رب العالمين » بإلهام الله فقال الله له « يرحمك الله يا آدم » ثم قال الله تعالى للملائكة الذين كانوا مع إبليس خاصة دون الملائكة الذين فى السموات اسجدوا لآدم فسجدوا كلهم أجمعون إلا إبليس أبى واستكبر لما كان حدث نفسه من الكبر والاغترار فقال لا أسجد له وأنا خير منه

وأكبر سناً وأقوى خلقاً ، خلقتنى من نار وخلقته من طين ، يقول إن النار أقوى من الطين قال فلما أبى إبليس أن يسجد أبلسه الله أى آيسه من الخير كله وجعله شيطاناً رجيما عقوبة لمعصيته ، ثم علم آدم الأسماء كلها .. إلى آخر ما روى عن ابن عباس وهو سياق غريب وفيه أشياء فيها نظر يطول مناقشتها

* * *

والغرض من أن الله تعالى لما أمر الملائكة بالسجود لآدم دخل إبليس فى خطابهم لأنه وإن لم يكن من عنصرهم ، إلا أنه كان قد تشبه بهم وتوسم بأفعالهم ، فلهذا دخل فى الخطاب لهم وذم فى مخالفة الأمر ، وسنبسط المسألة إن شاء الله عنـــد قوله (إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه)

وعن ابن عباس قال : كان إبليس قبل أن يركب المعصية من الملائكة اسمه عزازيل وكان من سكان الأرض ، وكان من أشد الملائكة اجتهاداً ، وأكثرهم علماً ، فذلك دعاه إلى الكبر ، وكان من حى يسمون جنا . .

وعن ابن عباس أيضاً فى رواية أخرى . . . أن إبليس كان من أشراف الملائكة وأكرمهم قبيلة ، وكان خازناً على الجنان ، وكان له سلطان سماء الدنيا ، وكان له سلطان الأرض

رأى بأنه ابليس لم يكن من الملائكة

وعن الحسن قال ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين قط وإنه لأصل الجن كما أن آدم أصل الأنس. وهذا إسناد صحيح عن الحسن وهكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم

* * *

رأى فى سجود الملائكة لآدم

قال قتادة فى قوله تعالى (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم) أنه كانت الطاعة لله والسجدة لآدم، أكرم الله آدم أن أسجد له ملائكته وقال بعض الناس كان هذا سجود تحية وسلام وأكرام كما قال تعالى (ورفع أبويه على العرش وخروا له سجداً ، وقال يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقا) وقد كان هذا مشروعاً فى الأمم الماضية ، ولكنه نسخ فى ملتنا ، قال معاذ . قدمت الشام فرأيتهم يسجدون لأساقفتهم وعلمائهم فأنت يارسول الله أحق أن يسجد لك فقال « لا لو كنت آمراً بشراً أن يسجد

لبشر لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها » ورجحه الرازى ، وقال بعضهم بل كانت السجدة لله وآدم قبلة فيها كما قال تعالى (أقم الصلاة لدلوك الشمس) وفى هذا التنظير نظر والأظهر أن القول الأول أولى والسجدة لآدم أكراماً وإعظاماً واحتراماً وسلاماً وهى طاعة لله عز وجل لأنها امتثال لأمره تعالى وقد قواه الرازى فى تفسيره وضعف ماعداه من القولين الآخرين وهما كونه جعل قبلة إذ لا يظهر فيه شرف والآخر أن المراد بالسجود الخضوع لا الإنحناء ووضع الجبهة على الأرض .

* * *

كان بدء الذنوب الكبر

كان إبليس أول من استكبر ولذلك كان بدء الذنوب الكبر وقد ثبت فى الصحيح « لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال حبة من خردل من كبر »

* * *

وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين. فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين .

يقول الله تعالى إخباراً عما أكرم به آدم . بعد أن أمر الملائكة بالسجود له فسجدوا إلا إبليس أنه أباحه الجنة يسكن منها حيث يشاء ويأكل منها ماشاء رغداً .. وقد اختلف فى الجنة التى أسكنها آدم هى فى السماء أم فى الأرض فالأكثرون على أنها فى السماء ، وحكى القرطبى عن المعتزلة والقدرية بأنها فى الأرض وسيأتى تقرير ذلك إن شاء الله فى سورة الأعراف ، وسياق الآية يقتضى أن حواء خلقت قبل دخول آدم الجنة وقد صرح بذلك محمد بن إسحق حيث قال لما فرغ الله من معاتبه إبليس أقبل

على آدم وقد علمه الأسماء كلها فقال يا آدم انبئهم بأسمائهم إلى قوله (إنك أنت العليم الحكيم) قال ثم أخذ ضلعاً من أضلاعه من شقه الأيسر ولأم مكانه لحماً وآدم نائم لم يهب من نومه حتى خلق الله من ضلعه تلك زوجته حواء فسواها امرأة ليسكن إليها فلما كشف عنه السنة وهب من نومه رآها إلى جنبه فقال فيما يزعمون والله أعلم « لحمي ودمي وزوجتي » فسكن إليها، فلما زوجه الله وجعل له سكناً من نفسه قال له (يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين) وعن ناس من الصحابة أن الملائكة قالت لآدم ينظرون ما بلغ من علمه ما اسمها يا آدم ؟ قال ، حواء .. قالوا ولم حواء ؟ .. قال إنها خلقت من شيء حي ..

اختبار من الله تعالى

وأما قوله (ولا تقربا هذه الشجرة) فهو اختبار من الله تعالى وامتحان لآدم وقد اختلف في هذه الشجرة ماهي .. وعن ناس من الصحابة أنها الكرم .. وتزعم يهود .. أنها الحنطة . وفي رواية عن ابن عباس أنه كتب إلى أبي الجلد يسأله عن الشجرة التي أكل منها آدم والشجرة التي تاب عندها آدم فكتب إليه ابو الجلد :

سألتني عن الشجرة التي نهى عنها آدم وهي السنبلة وسألتني عن الشجرة التي تاب عندها آدم وهي الزيتونة . وكذلك فسره الحسن البصري ووهب بن منبه وعطية العوفي وغيرهم .

* * *

فهناك أقوال كثيرة في تفسير هذه الشجرة . قال الإمام العلامة أبو جعفر بن جرير رحمه الله .. والصواب في ذلك أن يقال أن الله عز وجل ثناؤه نهى آدم وزوجته عن أكل شجرة بعينها من أشجار الجنة دون سائر أشجارها فأكلا منها ولا علم عندنا بأي شجرة كانت على التعيين لأن الله لم يضع لعباده دليلا على ذلك في القرآن ولا من السنة الصحيحة .

(فأزلهما الشيطان عنها) أي بسببها كما قال تعالى (يؤفك عنه من أفك) أي يصرف بسببه من هو مأفوك ولهذا قال تعالى (فأخرجهما مما كانا فيه) أي من اللباس والمنزل الرحب والرزق الهنيء والراحة (وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين) أي قرار وأرزاق وآجال — إلى حين — أي إلى وقت مؤقت ومقدار معين ثم تقوم القيامة .

قال الرازى .. إعلم أن هذه الآية تهديداً عظيما عن كل المعاصى من وجوه (الأول) أن من تصور ماجرى على آدم بسبب إقدامه على هذه الزلة الصغيرة كان على وجل من المعاصى قال الشاعر :

يا ناظراً يرنو بعيني راقد ... ومشاهداً للأمر غير مشاهد
تصل الذنوب إلى الذنوب وترتجى ... درج الجنان ونيل فوز العابد
أنسيت ربك حين أخرج آدما ... منها إلى الدنيا بذنب واحد

* * *

قال الرازى عن فتح الموصلى .. كنا قوماً من أهل الجنة فسبانا إلى الدنيا إبليس فليس لنا إلا الهم والحزن حتى نرد إلى الدار التى أخرجنا منها ، فإن قيل فإذا كانت جنة آدم التى أخرج منها فى السماء كما يقوله الجمهور من العلماء فكيف تمكن إبليس من دخول الجنة وقد طرد من هنالك طرداً قدريا والقدرى لا يخالف ولا يمانع ؟ فالجواب أن هذا بعينه استدل به من يقول أن الجنة التى كان فيها آدم فى الأرض لا فى السماء . وقد قال بعضهم أنه منع من دخول الجنة مكرماً فأما على وجه السرقة والإهانة فلا يمتنع ولهذا قال بعضهم كما جاء فى التوراة أنه دخل فى فم الحية إلى الجنة . وقد قال بعضهم أيضا يحتمل أنه وسوس لهما وهو خارج باب الجنة . أو وسوس لهما وهو فى الأرض وهما فى السماء ذكرها الزمخشرى وغيره .

* * *

(فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم)

قيل إن هذه الكلمات مفسرة بقوله تعالى (قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) .

وعن ابن عباس رضى الله عنه بإسناد صحيح قال : قال آدم عليه السلام يارب ألم تخلقنى بيدك ؟ قيل له بلى . . ونفخت فى من روحك ؟ قيل له بلى . . وعطست فقلت يرحمك الله وسبقت رحمتك غضبك ؟ قيل له بلى وكتبت على أن أعمل هذا ؟ قيل له بلى .. قال أرأيت أن تبت هل أنت راجعى إلى الجنة ؟ قال : نعم .

وقوله تعالى (إنه هو التواب الرحيم) أى أنه يتوب على من تاب وأناب كقوله

(ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده) وقوله (ومن يعمـــل سوءاً أو يظلم نفسه) الآية وقوله (ومن تاب وعمل صالحا) وغير ذلك من الآيات الدالة على أنه يغفر الذنوب ويتوب على من يتوب وهذا من لطفه بخلقه ورحمته بعبيده ، لا إله إلا هو التواب الرحيم .

* * *

(قلنا اهبطوا منها جميعاً فاما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) .

يقول تعالى مخبراً عما أنذر به آدم وزوجته وإبليس حين أهبطهم من الجنة والمراد الذرية إنه سينزل الكتب ويبعث الأنبياء والرســـل (فمن اتبع هداى) وأقبل على ما أنزلت به الرســـل (فلاخوف عليهم) فيما يستقبلونه من أمر الآخرة (ولا هم يحزنون) على مافاتهم من أمور الدنيا كما قال فى سورة طه (قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو فاما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى) قال ابن عباس فلا يضل فى الدنيا ولا يشقى فى الآخرة (ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى) كما قال ههنا (والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) أى مخلدون لا محيـــد لهم عنها ولا محيص وفى الحديث الشريف « أما أهل النار هم الذين أهلها فلا يموتون فيها ولا يحيون ولكن أقوام أصابتهم النار بخطاياهم فأماتتهم إماتة حتى إذا صاروا فحماً أذن فى الشفاعة)

* * *

يا بنى إسرائيـــل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم واوفوا بعهدى أوف بعهدكم وإياى فارهبون . وءامنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم ولا

تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا وإياي فاتقون .

نبي الله اسرائيل هو يعقوب

يقول تعالى آمراً بني إسرائيل بالدخول في الإسلام . ومتابعة محمد عليه من الله أفضل الصلاة والسلام . ومهيجاً لهم بذكر أبيهم إسرائيل وهو نبي الله يعقوب عليه السلام وتقديره يا بني العبد الصالح المطيع لله كونوا مثل أبيكم في متابعة الحق كما تقول يا ابن الكريم افعل كذا ، يا ابن الشجاع بارز الأبطال ، يا ابن العالم اطلب العلم ، ونحو ذلك .

* * *

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى (ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبداً شكورا) فإسرائيل هو يعقوب .. وعن ابن عباس قال حضرت عصابة من اليهود نبي الله ﷺ فقال لهم « هل تعلمون أن إسرائيل يعقوب ؟ » قالوا اللهم نعم . فقال النبي ﷺ « اللهم اشهد » .

(اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم) نعمة الله التي أنعم بها عليهم فيما سمى وفيما سوى ذلك أن فجر لهم الحجر وأنزل عليهم المن والسلوى ونجاهم من عبودية آل فرعون ، وجعل منهم الأنبياء والرسل وأنزل عليهم الكتب وهذا كقول موسى عليه السلام لهم (يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين) يعني في زمانهم

(وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم) بعهدي الذي أخذت في أعناقكم للنبي ﷺ إذا جاءكم أنجز لكم ما وعدتكم عليه من تصديقه واتباعه بوضع ما كان عليكم من الآصار والأغلال التي كانت في أعناقكم بذنوبكم التي كانت من أحداثكم . وقال الحسن البصري هو قوله تعالى (ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً وقال الله إني معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضاً حسناً لأكفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار) وقال آخرون هو الذي أخذ الله عليهم في التوراة أنه سيبعث من بني إسماعيل نبياً عظيما يطيعه جميع الشعوب والمراد به محمد ﷺ فمن اتبعه غفر الله له ذنبه وأدخله الجنة

وجعل له أجرين . وقد أورد الرازى بشارات كثيرة عن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بمحمد ﷺ .

فعهد الله إليهم الإسلام وأن يتبعوه ،وقال الضحاك عن ابن عباس (أوف بعهدكم) أرض عنكم وأدخلكم الجنة (وإياى فارهبون) فأخشون أن أنزل بكم ماأنزلت بمن كان قبلكم من النقمات التى عرفتم من المسخ وغيره .

الترغيب والترهيب

ونحن نرى فى الآية الكريمة انتقالا من الترغيب إلى الترهيب فدعاهم إليه بالرغبة والرهبة لعلهم يرجعون إلى الحق واتباع الرسول ﷺ والاتعاظ بالقرآن وزاجره وامتثال أوامره وتصديق أخباره والله يهدى من يشاء إلىصراط مستقيم ؛ ولهذا قال (وآمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم) يعنى به القرآن الذى أنزل على محمد ﷺ النبى الأمى العربى بشيراً ونذيرا وسراجاً منيراً مشتملا على الحق من الله تعالى مصدقاً لما بين يديه من التوراة والإنجيل فإنهم يجدون محمداً ﷺ مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل (ولا تكونوا أول كافر به) وعندكم فيه من العلم ما ليس عند غيركم واختار ابن جرير أن الضمير فى قوله به عائد على القرآن الذى تقدم ذكره فى قوله(بما أنزلت) وكلا القولين صحيح لأنهما متلازمان لأن من كفر بالقرآن فقد كفر بمحمد ﷺ ومن كفر بمحمد ﷺ فقد كفر بالقرآن .

(ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلا) لا تعتاضوا عن الإيمان بآياتى وتصديق رسولى بالدنيا وشهواتها فإنها قليلة فانية .. ومكتوب عندهم فى الكتاب الأول . يا ابن آدم علم مجانا كما علمت مجانا . وقيل معناه لا تعتاضوا عنالبيان والإيضاح ونشر العلم النافع فى الناس بالكتمان واللبس لتستمروا على رياستكم فى الدنيا القليلة الحقيرة الزائلة عن قريب .

(وإياى فاتقون) والتقوى أن تعمل بطاعة الله رجاء رحمة الله على نور من الله وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عقاب الله ومعنى قوله (وإياى فاتقون) أنه تعالى يتوعدهم فيما يتعمدونه من كتمان الحق وإظهار خلافه ومخالفتهم الرسول صلوات الله عليه وسلامه .

* * *

ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون . وأقيموا الصلاة وءاتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين. أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون . واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون

يقول الله تعالى ناهياً لليهود عما كانوا يتعمدونه من تلبيس الحق بالباطل . وتمويهه به وكتمانهم الحق وإظهارهم الباطل (ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون) فنهاهم عن الشيئين معاً وأمرهم بإظهار الحق والتصريح به . يقول في ذلك قتادة .. ولا تلبسوا اليهودية والنصرانية بالإسلام وأنتم تعلمون أن دين الله الإسلام وأن اليهودية والنصرانية بدعة ليست من الله . (وتكتموا الحق وأنتم تعلمون) فلا تكتموا ما عندكم من المعرفة برسولي وبما جاء به وأنتم تجدونه مكتوباً عندكم فيما تعلمون من الكتب التي بأيديكم .(وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين) فاركعوا مع الراكعين من أمة محمد ﷺ وكونوا معهم ومنهم . وآتوا مثلهم الزكاة التي هي فريضة لا تنفع الأعمال إلا بها وبالصلاة .

وقد استدل كثير من العلماء بهذه الآية على وجوب الجماعة .

* * *

وكان بنو إسرائيل يأمرون الناس بطاعة الله ويخالفون مايدعون إليه فعيرهم الله (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم) فما يليق بكم يا معشر أهل الكتاب وأنتم تأمرون الناس بالبر وهو جماع الخير أن تنسوا أنفسكم فلا تأتمرون بما تأمرون الناس به وأنتم مع ذلك تتلون الكتاب وتعلمون ما فيه على من قصر في أوامر الله ؟ أفلا تعقلون ما أنتم صانعون بأنفسكم . فتنتبهوا من رقدتكم ، وتبصروا من عمايتكم فمن أمر بخير فليكن أشد الناس فيه مسارعة .

قال أبو الدرداء رضى الله عنه . لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يمقت الناس فى ذات الله ثم يرجع إلى نفسه فيكون لها أشد مقتاً . .

فالأمر بالمعروف واجب على العالم ولكن الواجب والأولى بالعالم أن يفعله مع من أمرهم به ولا يتخلف عنهم كما قال شعيب (وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب) فكل من الأمر بالمعروف وفعله واجب لا يسقط أحدهما بترك الآخر على أصح قولى العلماء من السلف والخلف ، وذهب بعضهم إلى أن مرتكب المعاصى لا ينهى غيره عنها وهذا ضعيف . والصحيح أن العالم يأمر بالمعروف وإن لم يفعله وينهى عن المنكر وإن ارتكبه

قال مالك بن ربيعة سمعت سعيد بن جبير يقول .. لو كان المرء لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر حتى لا يكون فيه شىء ما أمر أحد بمعروف ولا نهى عن منكر

قال مالك ، وصدق من ذا الذى ليس فيه شىء ؟ لكنه والحالة هذه مذموم فإنه ليس من يعلم كمن لا يعلم ولهذا جاءت الأحاديث فى الوعيد على ذلك . وعن جندب ابن عبد الله رضى عنه قال : قال رسول الله ﷺ « مثل العالم الذى يعلم الناس الخير ولا يعمل به كمثل السراج يضىء للناس ويحرق نفسه »

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « مررت ليلة أسرى بى على قوم تقرض شفاههم بمقاريض من نار. قال قلت من هؤلاء ؟ قالوا خطباء أمتك من أهل الدنيا ممن كانوا يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون » .

* * *

وعن أسامة قال سمعت النبى ﷺ يقول « يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى فى النار فتندلق به أقتابه فيدور بها فى النار كما يدور الحمار برحاه فيطيف به أهل النار فيقولون يا فلان ما أصابك ألم تكن تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر ؟ فيقول كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه وأنهاكم عن المنكر وآتيه »

وقد ورد فى بعض الآثار أنه يغفر للجاهل سبعين مرة حتى يغفر للعالم مرة واحدة وليس من يعلم كمن لا يعلم وقال تعالى (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب)

وروى ابن عساكر فى ترجمة الوليد بن عقبة عن النبى ﷺ قال « إن أناساً من

أهل الجنة يطلعون على أناس من أهل النار فيقولون بم دخلتم النار ؟ فوالله ما دخلنا الجنة إلا بما تعلمنا منكم فيقولون إنا كنا نقول ولا نفعل »

* * *

(واستعينوا بالصبر والصلاة)

استعينوا على طلب الآخرة بالصبر على الفرائض والصلاة فأما الصبر فقيل إنه الصيام ولهذا يسمى رمضان شهر الصبر وفى الحديث « الصوم نصف الصبر » وقيل المراد بالصبر الكف عن المعاصى ولهذا قرنه بأداء العبادات وأعلاها فعل الصلاة

وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال . . الصبر صبران ، صبر عند المصيبة حسن ، وأحسن منه الصبر عن محارم الله .

والصلاة من أكبر العون على الثبات كما قال تعالى (اتل ما أوحى إليك من الكتاب وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر) . . وقد كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة . قال على رضى الله عنه . . لقد رأيتنا ليلة وما فينا إلا نائم غير رسول الله ﷺ يصلى ويدعو حتى أصبح . . وروى أنه ﷺ مر بأبى هريرة وهو منبطح على بطنه فقال له « أشكم درد » ومعناه أيوجعك بطنك ؟ قال نعم . ، قال « قم فصل فإن الصلاة شفاء » .

* * *

(وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين)

وإنها لثقيلة إلا على الخاضعين لطاعته الخائفين سطوته المصدقين بوعده ووعيده .

وهذا يشبه ماجاء فى الحديث « لقد سألت عن عظيم وإنه ليسير على من يسره الله عليه » .

ومعنى الآية . . واستعينوا أيها الأحبار من أهل الكتاب بحبس أنفسكم على طاعة الله وبإقامة الصلاة المانعة من الفحشاء والمنكر المقربة من رضا الله العظيمة إقامتها إلا على الخاشعين المتواضعين المستكينين لطاعته المتذللين من مخافته . . والظاهر أن الآية وإن كانت خطاباً فى سياق إنذار بنى إسرائيل فإنهم لم يقصدوا بها على سبيل التخصص وإنما هى عامة لهم ولغيرهم والله أعلم .

* * *

وقوله تعالى (الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون) هـذا من تمام الكلام الذى قبله أى أن الصلاة ثقيلة إلا على الخاشعين الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم ومحشورون إليه يوم القيامة معروضون عليه وأنهم إليه راجعون أى أن أمورهم راجعة إلى مشيئته يحكم فيها مايشاء يعدله فلهذا لما أيقنوا بالمعاد والجزاء سهل عليهم فعل الطاعات وترك المنكرات .

وأما قوله (يظنون أنهم ملاقوا ربهم) قال ابن جرير رحمه الله أن العرب تسمى اليقين ظناً والشك ظناً كما قد يسمون المغيث صارخا والمستغيث صارخا وما أشبه من الأسماء التى يسمى بها الشيء وضده . . ومن ذلك قوله تعالى (ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها) .. وعن جابر عن مجاهد كل ظن فى القرآن يقين ، وفى الصحيح أن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة « ألم أزوجك ألم أكرمك ألم أسخر لك الخيل والأبل وأذرك ترأس وتربع ؟ » فيقول بلى فيقول الله تعالى « أظننت أنك ملاقى؟ » فيقول لا فيقول الله « اليوم أنساك كما نسيتنى » وسيأتى ذلك مبسوطاً إن شاء الله عند قوله تعالى (نسوا الله فنسيهم) .

* * *

يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ : وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ

* * *

يذكرهم تعالى بسالف نعمه على آبائهم وأسلافهم وما كان فضلهم به من إرسال الرسل منهم وإنزال الكتب عليهم وعلى سائر الأمم من أهل زمانهم كما قال تعالى (ولقد اخترناهم على علم على العالمين) وقال تعالى (وإذ قال موسى لقومه ياقوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم مالم يؤت أحداً من العالمين) عن أبى العاليه فى قوله تعالى (وأنى فضلتكم على العالمين) قال بما أعطوا

من الملك والرسل والكتب على عالم من كان فى ذلك الزمان فان لكل زمان عالما وعن ابن أنس وقتادة وغيرهم أنه يجب أن يحمل على هذا المعنى أى أنهم كانوا أفضل مافى زمانهم وذلك لأن الأمة الإسلامية أفضل منهم لقوله تعالى (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر) وعن رسول الله ﷺ أنه قال (أنتم توفون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله ؟

لما ذكرهم تعالى بنعمه أولا عطف على ذلك التحذير من طول نقمه بهم يوم القيامة فقال) (واتقوا يوما) يعنى يوم القيامة (لاتجزى نفس عن نفس شيئا) أى لا يغنى أحد عن أحد كما قال (ولا تزر وازرة وزر أخرى) وقال (لكل أمرىء منهم يومئذ شأن يغنيه) وقال (يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوما لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا) فهذا أبلغ المقامات أن كلا من الوالد وولده لا يغنى أحدهما عن الآخر شيئا ، وقوله تعالى (ولا يقبل منها شفاعة) يعنى من الكافرين كما قال عن أهل النار (فما لنا من شافعين ولا صديق حميم) وقوله تعالى(ولا يؤخذ منها عدل) أى لا يقبل فيها كما قال تعالى (وأن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به) (أن الذين كفروا لو أن لهم ما فى الأرض جميعا ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم ولهم عذاب أليم) .

(ولا هم ينصرون) أى لا أحد يغضب لهم فينصرهم وينقذهم من عذاب الله فإنه لاتنفع قرابة قريب ولاشفاعة ذى جاه ولا يقبل فداء ولو بملء الأرض ذهبا فهو يوم (لا بيع فيه ولا خلال) كما قال تعالى (فيومئذ لايعذب عذابه أحد ولا يوثق وثاقه أحد) فهم يومئذ لاينصرهم ناصر كما لا يشفع لهم شافع ولا يقبل منهم عدل ولا فدية بطلت هنالك المحاباة واضمحلت الرشا والشفاعات وارتفع من القوم التناصر والتعاون وصار الحكم إلى الجبار العدل فيجزى بالسيئة مثلها وبالحسنة أضعافها (وقفوهم إنهم مسئولون . مالكم لاتناصرون ؟ بل هم اليوم مستسلمون) .

* * *

(وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون

أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم * وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون)

يقول تعالى اذكروا يا بنى إسرائيل نعمتى عليكم إذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب أى خلصتكم منهم وانقذتكم من أيديهم صحبة موسى عليه السلام وقد كانوا يسومونكم أى يذيقونكم سوء العذاب .

وذلك أن فرعون .. لعنه الله .. كان قد رأى رؤيا هالته . رأى ناراً خرجت من بيت المقدس فدخلت بيوت القبط ببلاد مصر إلا بيوت بنى إسرائيل مضمونها أن زوال ملكه يكون على يدى رجل من بنى إسرائيل ويقال بعد تحدث سماره عنده بأن بنى إسرائيل يتوقعون خروج رجل منهم يكون لهم به دولة ورفعة .. كما سيأتى فى موضعه فى سورة طه إن شاء الله تعالى .. فعند ذلك أمر فرعون لعنه الله بقتل كل ذكر يولد بعد ذلك من بنى إسرائيل وأن تترك البنات وامر باستعمال بنى إسرائيل فى مشاق الأعمال وأرذلها وههنا فسر العذاب بذبح الأبناء .. وفرعون علم على كل من ملك مصر كافراً من العمالقة وغيرهم كما أن قيصر علم على كل من ملك الروم مع الشام كافراً وكسرى لمن ملك الفرس ، وتبع لمن ملك اليمن كافراً ، والنجاشى لمن ملك الحبشة ، وبطليموس لمن ملك الهند .

* * *

(وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم) قال ابن جرير وفى الذى فعلنا بكم من إنجائنا آباءكم مما كنتم فيه من عذاب آل فرعون بلاء لكم من ربكم عظيم أى نعمة عظيمة عليكم .. وأصل البلاء الاختبار وقد يكون بالخير وبالشر كما قال تعالى (ونبلوكم بالشر والخير فتنة) وقال (وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون) .

(وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون) معناه وبعد أن أنقذناكم من آل فرعون وخرجتم مع موسى عليه السلام خرج فرعون فى طلبكم ففرقنا بكم البحر كما أخبر عن ذلك تعالى مفصلا كما سيأتى فى مواضعه ومن أبسطها ما فى سورة الشعراء إن شاء الله (فأنجيناكم) أى خلصناكم منهم وحجزنا بينكم وبينهم وأغرقناهم وأنتم تنظرون ليكون ذلك أشفى لصدوركم وأبلغ فى إهانة عدوكم .

عن عمرو بن ميمون الأودى قال :

لما خرج موسى ببنى إسرائيل بلغ ذلك فرعون فقال لا تتبعوهم حتى تصيح الديكة قال فوالله ما صاح ليلتئذ ديك حتى أصبحوا فدعا بشاة فذبحت ثم قال لا أفرغ من كبدها حتى يجتمع إلى ستمائة ألف فلم يفرغ من كبدها حتى اجتمع إليه ستمائة ألف من قومه فلما أتى موسى البحر قال له رجل من أصحابه يقال له يوشع بن نون أين أمر ربك ؟

قال موسى أمامك.. يشير إلى البحر

فأقحم يوشع فرسه فى البحر حتى بلغ الغمر فذهب به الغمر ثم رجع فقال أين أمر ربك ياموسى ؟ فوالله ما كذبت ولا كذبت ، فعل ذلك ثلاث مرات ثم أوحى الله إلى موسى أن أضرب بعصاك البحر فضربه فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم ـ يقول مثل الجبل ثم سار موسى ومن معه واتبعهم فرعون فى طريقهم حتى إذا تتاموا فيه أطبقه الله عليهم فلذلك قال (وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون) وكذلك قال غير واحد من السلف كما سيأتى بيانه فى موضعه إن شاء الله .

* * *

سبب صيام يوم عاشوراء

وقد ورد أن هذا اليوم كان يوم عاشوراء وفى حديث عن ابن عباس قال : قدم رسول الله ﷺ المدينة فرأى اليهود يصومون يوم عاشوراء فقال « ما هذا اليوم الذى تصومون ؟ » قالوا هذا يوم صالح يوم نجى الله عز وجل فيه بنى إسرائيل من عدوهم فصامه موسى عليه السلام فقال رسول الله ﷺ « أنا أحق بموسى منكم » فصامه رسول الله ﷺ وأمر بصومه .

* * *

وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون ۞ ثم عفونا عنكم من بعد ذلك لعلكم تشكرون ۞ وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون

يقول تعالى واذكروا نعمتى عليكم فى عفوى عنكم لما عبدتم العجل بعد ذهاب موسى لميقات ربه عند انقضاء أمد المواعدة وكانت أربعين يوما وهى المذكورة فى الأعراف فى قوله تعالى (وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر) قيل أنها ذو القعدة بكماله وعشر من ذى الحجة وكان ذلك بعد خلاصهم من فرعون وإنجائهم من البحر وقوله تعالى (وإذ آتينا موسى) يعنى التوراة (والفرقان) وهو ما يفرق بين الحق والباطل والهدى والضلالة (لعلكم تهتدون) وكان ذلك أيضاً بعد خروجهم من البحر كما دل عليه سياق الكلام فى سورة الأعراف وكقوله تعالى (ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر للناس وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون)

وإذ قال موسى لقومه يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم * وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون * ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون

* * *

هذه صفة توبته تعالى على بنى إسرائيل من عبادة العجل . قال الحسن البصرى رحمه الله فى قوله تعالى (وإذ قال موسى لقومه يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل) فقال ذلك حين وقع فى قلوبهم من شأن عبادتهم العجل ما وقع حتى قال الله تعالى (ولما سقط فى أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا) الآية ..

(فتوبوا إلى بارئكم) أى إلى خالقكم وفى قوله ههنا (إلى بارئكم) تنبيه على عظم جرمهم أى فتوبوا إلى الذى خلقكم وقد عبدتم معه غيره

(فاقتلوا أنفسكم) قال ابن اسحاق لما رجع موسى إلى قومه وأحرق العجل وذراه

فى اليم خرج إلى ربه بمن اختار من قومه فأخذتهم الصاعقة ثم بعثوا فسأل موسى ربه التوبة لبنى إسرائيل من عبادة العجل فقال لا إلا أن يقتلوا أنفسهم ، قال فبلغنى أنهم قالوا لموسى نصبر لأمر الله فأمر موسى من لم يكن عبدالعجل أن يقتل من عبده فجلسوا بالأفنية وأصلت عليهم القوم السيوف فجعلوا يقتلونهم فمش موسى فبكى إليه النساء والصبيان يطلبون العفو عنهم فتاب عليهم وعفا عنهم وأمر موسى أن ترفع عنهم السيوف

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم أن الله بعث عليهم ضبابة فجعلوا يتلامسون بالأيدى ويقتل بعضهم بعضا ويلقى الرجل أباه وأخاه فيقتله وهو لا يدرى . ويتنادون فيها رحم الله عبداً صبر حتى يبلغ الله رضاه ، قال فقتلاهم شهداء وتيب على أحيائهم ثم قرأ (فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم)

* * *

(وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة) قيل لما رجع موسى إلى قومه فرأى ما هم عليه من عبادة العجل وقال لأخيه وللسامرى ما قال وحرق العجل وذراه فى اليم اختار موسى منهم سبعين رجلا الخير فالخير وقال انطلقوا إلى الله وتوبوا إلى الله مما صنعتم واسألوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم ، صوموا وتطهروا وطهروا ثيابكم . فخرج بهم إلى طور سيناء لميقات وقته له ربه وكان لا يأتيه إلا بأذن منه وعلم فقال له السبعون يا موسى اطلب لنا إلى ربك نسمع كلام ربنا فقال أفعل ، فلما دنا موسى من الجبل وقع عليه الغمام حتى تغشى الجبل كله ودنا موسى فدخل فيه وقال للقوم ادنوا ، وكان موسى إذا كلمه الله وقع على جبهته نور ساطع لا يستطيع أحد من بنى آدم أن ينظر إليه فضرب دونه حجاب ودنا القوم حتى إذا دخلوا فى الغمام وقعوا سجوداً فسمعوه وهو يكلم موسى يأمره وينهاه أفعل ولا تفعل ، فلما فرغ إليه من أمره انكشف لموسى الغمام فأقبل اليهم فقالوا لموسى (لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة) فأخذتهم الرجفة وهى الصاعقة فماتوا جميعاً ، وقام موسى يناشد ربه ويدعوه ويرغب اليه ويقول (رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياى) كيف أرجع إلى بنى إسرائيل وليس معى رجل واحد فما الذى يصدقونى به ويأمنونى عليه بعد هذا ؟ فلم يزل موسى يناشد ربه عز وجل ويطلب إليه التوبة لبنى إسرائيل من عبادة العجل فقال حتى يقتلوا أنفسهم . . وهذا سياق محمد بن اسحاق.

وهناك قول لعبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى تفسير هذه الآية قال لهم موسى لما رجع من عند ربه بالألواح قد كتب فيها التوراة فوجدهم يعبدون العجل ، فأمرهم بقتل أنفسهم ففعلوا فتاب الله عليهم ،فقال أن هذه الألواح فيها كتاب الله فيه أمركم الذى أمركم به ونهيكم الذى نهاكم عنه ، فقالوا ومن يأخذه بقولك أنت ؟ لا والله حتى نرى الله جهرة فيقول هذا كتابى فخذوه فما له لا يكلمنا كما يكلمك أنت يا موسى،وقرأ قول الله تعالى (لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة) قال فجاءت غضبة من الله فجاءتهم صاعقة بعد التوبة فصعقتهم فماتوا أجمعون ، قال ثم أحياهم الله من بعد موتهم وقرأ قول الله (ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون) فقال لهم موسى خذوا كتاب الله فقالوا لا ، فقال أى شىء أصابكم ؟ فقالوا أصابنا أنا متنا ثم أحيينا ، قال خذوا كتاب الله قالوا لا ، فبعث الله ملائكة فنتقت الجبل فوقهم .

وهذا السياق يدل على أنهم كلفوا بعد ما أحيوا

* * *

وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون

لما ذكر الله تعالى ما دفعه عنهم من النقم شرع يذكرهم أيضاً بما أسبغ عليهم من النعم فقال (وظللنا عليكم الغمام) وهو جمع غمامة سمى بذلك لأنه يغم السماء أى يواريها ويسترها وهو السحاب الأبيض ظللوا به فى التيه ليقيهم حر الشمس كما رواه النسائى وغيره .

وقوله تعالى (وأنزلنا عليكم المن) اختلفت عبارات المفسرين فى المن ما هو ؟ فقال ابن عباس كان المن ينزل عليهم على الأشجار فيغدون إليه فيأكلون منه ماشاءوا

وقال قتادة كان المن ينزل عليهم فى محلهم سقوط الثلج أشد بياضا من اللبن وأحلى من العسل يسقط عليهم من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس يأخذ الرجل منهم قدر ما يكفيه يومه ذلك .

وقال الربيع بن أنس المن شراب كان ينزل عليهم مثل العسل فيمزجونه بالماء ثم

يشربونه . وقال وهب بن منبه المن خبز رقاق وروى عن الشعبي أنه قال عسلكم هذا جزء من سبعين جزءاً من المن

والظاهر والله أعلم أنه كل ما امتن الله به عليهم من طعام وشراب وغير ذلك مما ليس لهم فيه عمل ولا كد فالمن المشهور إن أكل وحده كان طعاما وحلاوة وإن مزج مع الماء صار شرابا طيباً والدليل على ذلك ما جاء فى الحديث الشريف « الكمأة من المن وماؤها شفاء للعين » .

* * *

وأما السلوى فعن ابن عباس أنه طائر يشبه السمانى . وقال السدى لما دخل بنو إسرائيل التيه قالوا لموسى عليه السلام أين الطعام فأنزل الله عليهم المن فكان ينزل على شجر الزنجبيل ، والسلوى وهو طائر يشبه السمانى فقالوا هذا الطعام فأين الشراب؟ فأمر موسى فضرب بعصاه الحجر فانفجرت منه إثنتا عشرة عينا فشرب كل سبط من عين . فقالوا هذا الشراب فأين الظل ؟ فظلل عليهم الغمام ، فذلك قوله تعالى (وظللنا عليهم الغمام وأنزلنا عليهم المن والسلوى) وقوله (وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه إثنتا عشرة عينا قد علم كل أناس مشربهم كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا فى الأرض مفسدين) .

وقوله تعالى (كلوا من طيبات مارزقناكم) أمر إباحة وإرشاد وامتنان ، وقوله تعالى (وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) أى أمرناهم بالأكل مما رزقناهم وأن يعبدوا فخالفوا وكفروا مع ما شاهدوه من الآيات البينات والمعجزات القاطعات وخوارق العادات فظلموا أنفسهم ، ومن ههنا تتبين فضيلة أصحاب محمد ﷺ ورضى عنهم على سائر أصحاب الأنبياء فى صبرهم وثباتهم وعدم تعنتهم مع ماكانوا معه فى أسفاره وغزواته منها عام تبوك فى ذلك القيظ والحر الشديد والجهد لم يسألوه خرق عادة ولا إيجاد أمر مع أن ذلك كان سهلا على النبى ﷺ . ولكن لما أجهدهم الجوع سألوه فى تكثير طعامهم فجمعوا ما معهم فجاء قدر مبرك الشاة فدعا الله فيه وأمرهم فملأوا كل وعاء معهم وكذا لما احتاجوا إلى الماء سأل الله تعالى فجاءتهم سحابة فأمطرتهم فشربوا وسقوا الأبل وملأوا أسقيتهم ثم نظروا فإذا هى لم تجاوز العسكر .. فهذا هو الأكمل فى إتباع الشىء مع قدر الله مع متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم .

* * *

(وإذ قلنا ادخلوا هـذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغداً وادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين * فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذى قيل لهم فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون)

يقول تعالى لائماً لهم على نكولهم عن الجهاد ودخولهم الأرض المقدسة لما قدموا من بلاد مصر صحبة موسى عليه السلام فأمروا بدخول الأرض المقدسة وقتال من فيها من الجبابرة الكفرة فنكلوا عن قتالهم وضعفوا واستحسروا فرماهم الله فى التيه عقوبة لهم كما ذكره تعالى فى سورة المائدة .. ولهذا كان أصح القولين أن هذه البلدة هى بيت المقدس وقد قال تعالى حاكياً عن موسى (ياقوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم ولا ترتدوا) ولما فتحوها أمروا أن يدخلوا باب البلد (سجداً) شكراً لله تعالى على ما أنعم به عليهم من الفتح والنصر ورد بلدهم عليهم وإنقاذهم من التيه والضلال وحكى عن بعضهم أن المراد ههنا بالسجود الخضوع لتعذر حمله على حقيقته (وقولوها حطة) أى مغفرة فاستغفروا (نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين) وهذا جواب الأمر أى إذا فعلتم ما أمرناكم غفرنا لكم الخطيئات وضاعفنا لكم الحسنات وحاصل الأمر أنهم أمروا أن يخضعوا لله تعالى عند الفتح بالفعل والقول وأن يعترفوا بذنوبهم ويستغفروا منها والشكر على النعمة عندها والمبادرة إلى ذلك من المحبوب عند الله تعالى كما قال سبحانه (إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا) فسره بعض الصحابة بكثرة الذكر والاستغفار عند الفتح والنصر ، ولهذا كان عليه الصلاة والسلام يظهر عليه الخضوع جداً عند النصر كما روى أنه كان يوم فتح مكة داخلا إليها من الثنية العليا وإنه لخاضع لربه حتى أن عثنونه ليمس مورك رحله شكراً لله على ذلك، ثم لما دخل البلد اغتسل وصلى ثمانى ركعات وذلك ضحى فقال بعضهم هذه صلاة الضحى وقال آخرون بل هى صلاة الفتح فاستحبوا للإمام وللأمير إذا فتح بلداً أن يصلى فيه

ثمانى ركعات عند أول دخوله كما فعل سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه لما دخل إيوان كسرى .

والصحيح أنه يفصل بين كل ركعتين بتسليم ، وقيل يصليها بتسليم واحد والله أعلم

☆ ☆ ☆

وقوله تعالى (فبدل الذين ظلموا قولا غير الذى قيل لهم) فقد روى عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال « قيل لبنى إسرائيل ادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة . . فدخلوا يزحفون على أستاههم فبدلوا وقالوا حبة فى شعيره » . وحاصل ما ذكره المفسرون وما دل عليه السياق أنهم بدلوا أمر الله لهم من الخضوع بالقول والفعل إلى الاستهزاء والمخالفة والمعاندة ولهذا أنزل الله بهم بأسه وعذابه بفسقهم وهو خروجهم عن طاعته .

ولذلك قال تعالى (فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون)

قال الشعبى الرجز إما الطاعون وإما البرد .

☆ ☆ ☆

وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا قد علم كل أناس مشربهم كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا فى الأرض مفسدين

يقول تعالى واذكروا نعمتى عليكم فى إجابتى لنبيكم موسى عليه السلام حين استسقانى لكم وتيسيرى لكم الماء وإخراجه لكم من حجر من ثنتى عشرة عينا لكل سبط من أسباطكم عين قد عرفوها فكلوا من المن والسلوى واشربوا من هذا الماء الذى أنبعته لكم بلا سعى منكم ولا كد وأعبدوا الذى سخر لكم ذلك (ولا تعثوا فى الأرض مفسدين) فلا تقابلوا النعم بالعصيان فتسلبوها .

☆ ☆ ☆

وإذ قلتم ياموسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها قال أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير اهبطوا مصرا فان لكم ما سألتم

يقول الله تعالى واذكروا نعمتى عليكم فى إنزالى عليكم المن والسلوى طعاما طيبا نافعا هنيئا سهلا واذكروا ضجركم مما رزقناكم وسؤالكم موسى استبدال ذلك بالأطعمة الدنيئة من البقول ونحوها مما سألتم ، قال الحسن البصرى فبطروا ذلك فلم يصبروا عليه وذكروا عيشهم الذى كانوا فيه وكانوا قوما أهل أعداس وبصل وبقل وفوم فقالوا (ياموسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها) وإنما قالوا على طعام واحد وهم يأكلون المن والسلوى لأنه لا يتبدل ولا يتغير كل يوم فهو مأكل واحد . فالبقول والقثاء والعدس والبصل كلها معروفة . وأما الفوم فقد اختلف السلف فى معناه وقد فسره بعضهم بالثوم وآخرون بالحنطة ، وقال بعضهم هو الحمص وقيل الحبوب .

وقوله تعالى (قال اتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير) فيه تقريع لهم وتوبيخ على ماسألوا من هذه الأطعمة الدنيئة مع ماهم فيه من العيش الرغيد والطعام الهنىء الطيب النافع ،

وقوله تعالى (اهبطوا مصرا) قال ابن عباس مصرا من الأمصار وفسرها بعضهم بمصر فرعون والحق أن المراد هو مصر من الأمصار كما روى عن ابن عباس وغيره لأن موسى عليه السلام يقول لهم هذا الذى سألتم ليس بأمر عزيز بل هو كثير فى أى بلد دخلتموها وجدتموه فليس يساوى معدناءته وكثرته فى الأمصار أن اسأل الله فيه ولهذا قال (أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير اهبطوا مصرا فان لكم ماسألتم) أى ما طلبتم ولما كان سؤالهم هذا من باب البطر والأشر ولا ضرورة فيه لم يجابوا إليه والله أعلم .

(وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءو بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون .)

يقول تعالى (وضربت عليهم الذلة والمسكنة) أى وضعت عليهم وألزموا بها شرعا وقدراً أى لا يزالون مستذلين ، من وجدهم استذلهم وأهانهم وضرب عليهم الصغار وهم مع ذلك فى أنفسهم أذلاء مستكينون .

وقوله تعالى (وباءوا بغضب من الله) استوجبوا سخطا ، ومن ذلك قوله تعالى (إنى أريد أن تبوء بإثمى وإثمك) يعنى تنصرف متحملها وترجع بهما قدصارا عليك دونى

وقوله تعالى (ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق) بقوله تعالى هذا الذى جازيناهم من الذلة والمسكنة وإحلال الغضب بهم بسبب استكبارهم عن اتباع الحق وكفرهم بآيات الله وإهانتهم حملة الشرع وهم الأنبياء واتباعهم فانتقصوهم إلى أن أفضى بهم الحال إلى أن قتلوهم فلا كفر أعظم من هذا ، ولهذا جاء فى الحديث المتفق على صحته أن رسول الله ﷺ قال « الكبر بطر الحق وغمط الناس »

وعن ابن مسعود قال أتيت رسول الله ﷺ وعنده مالك بن مرارة الرهاوى فأدركته من آخر حديثه وهو يقول يا رسول الله قد قسم لى من الجمال ماترى فما أحب أن أحداً من الناس فضلنى بشراكين فما فوقهما أليس ذلك هو البغى ؟ فقال « لا ليس ذلك من البغى ولكن البغى من بطر أو قال سفه الحق وغمط الناس » يعنى رد الحق وانتقاص الناس والازدراء بهم والتعاظم عليهم ، ولهذا لما ارتكب بنو إسرائيل ما ارتكبوه من الكفر بآيات الله وقتلهم أنبياءه أحل الله بهم بأسه الذى لا يرد وكساهم ذلا فى الدنيا موصولا بذل الآخرة جزاء وفاقا ،

وفى الحديث الشريف (أشد الناس عذاباً يوم القيامة رجل قتله نبى أو قتل نبياً وإمام ضلالة وممثل من الممثلين)

وقوله تعالى (ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون) وهذه علة أخرى فى مجازاتهم بما

جوزوا به أنهم كانوا يعصون ويعتدون فالعصيان فعل المناهى والاعتداء المجاوزة فى حد المأذون فيه والمأمور به والله أعلم .

(إن الذين ءامنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من ءامن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون)

لما بين تعالى حال من خالف أوامره وارتكب زواجره وتعدى فى فعل ما لا إذن فيه وانتهك المحارم وما أحل بهم من النكال ، نبه تعالى على أن من أحسن من الأمم السالفة وأطاع فإن له جزاء الحسنى وكذلك الأمر إلى قيام الساعة كل من اتبع الرسول النبى الأمى فله السعادة الأبدية ولا خوف عليهم فيما يستقبلونه ولا هم يحزنون على ما يتركونه ويخلفونه كما قال تعالى (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) وكما تقول الملائكة للمؤمنين عند الاحتضار فى قوله (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون)

وقال السدى (إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن منهم بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً) الآية نزلت فى أصحاب سلمان الفارسى بينا هو يحدث النبى ﷺ إذ ذكر أصحابه فأخبره خبرهم فقال كانوا يصلون ويصومون ويؤمنون بك أنك ستبعث نبياً فلما فرغ سلمان من ثنائه عليهم قال له النبى ﷺ : « يا سلمان هم من أهل النار» فاشتد ذلك على سلمان فأنزل الله هذه الآية .. فكان الإيمان هو أنه من تمسك بالتوراة وسنة موسى عليه السلام حتى جاء عيسى فلما جاء عيسى كان من تمسك بالتوراة وأخذ بسنة موسى فلم يدعها ولم يتبع عيسى كان هالكا وإيمان النصارى أن من تمسك بالإنجيل منهم وشرائع عيسى كان مؤمناً مقبولا منه حتى جاء محمد ﷺ فمن لم يتبع محمداً ﷺ منهم ويدع ما كان عليه من سنة عيسى والإنجيل كان هالكا . فأنزل الله بعد ذلك (ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين)

وهذا إخبار عن أنه لا يقبل من أحد طريقة ولا عملا إلا ما كان موافقا لشريعة

محمد ﷺ بعد أن بعثه بما بعثه به فأما قبل ذلك فكل من اتبع الرسول فى زمانه فهو على هدى وسبيل ونجاة واليهود هم أتباع موسى عليه السلام الذين كانوا يتحاكمون إلى التوراة فى زمانهم ، واليهود من الهوادة وهى المودة أو التهود وهى التوبة كقول موسى عليه السلام (إنا هدنا اليك) أى تبنا فكأنهم سموا بذلك فى الأصل لتوبتهم ومودتهم بعضهم لبعض وقيل لنسبتهم إلى يهودا أكبر أولاد يعقوب . . فلما بعث عيسى عليه السلام وجب على بنى إسرائيل اتباعه والانقياد له فأصحابه وأهل دينه هم النصارى وسموا بذلك لتناصرهم فيما بينهم وقد يقال لهم أنصار أيضا كما قال عيسى عليه السلام (من أنصارى إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله) وقيل إنهم سموا بذلك من أجل أنهم نزلوا أرضاً يقال لها ناصرة .

فلما بعث محمداً ﷺ خاتماً للنبيين ورسولا إلى بنى آدم على الاطلاق وجب عليهم تصديقه فيما أخبر وطاعته فيما أمر والانكفاف عما عنه زجر وهؤلاء هم المؤمنون حقا وسميت أمة محمداً ﷺ مؤمنين لكثرة إيمانهم وشدة إيقانهم ولأنهم يؤمنون بجميع الأنبياء الماضية والغيوب الآتية .

* * *

وأما الصابئون فقد اختلف فيهم فقيل أنهم قوم بين المجوس واليهود والنصارى ليس لهم دين . وقيل أنهم قوم يعبدون الملائكة ، وقيل أنهم قوم كانوا يؤمنون بالنبيين كلهم ويصومون من كل سنة ثلاثين يوما ويصلون إلى القبلة كل يوم خمس صلوات وقال عبد الرحمن بن زيد الصابئون أهل دين من الأديان كانوا بجزيرة الموصل يقولون لا إله إلا الله وليس لهم ولا كتاب ولا نبى ولم يؤمنوا برسول . ويقول وهب بن منبه أنهم قوم ليسوا على دين اليهود ولا النصارى ولا المجوس ولا المشركين وإنما هم قوم باقون على فطرتهم ولا دين مقرر لهم يتبعونه ويقتفونه ولهذا كان المشركون ينبزون من أسلم بالصابىء أى أنه قد خرج عن سائر أديان أهل الأرض إذ ذاك ، وقال بعض العلماء الصابئون الذين لم تبلغهم دعوة نبى والله أعلم

* * *

(وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة

واذكروا ما فيه لعلكم تتقون * ثم توليتم من بعد ذلك فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين)

يقول تعالى مذكراً بنى إسرائيل ما أخذ عليهم من العهود والمواثيق بالإيمان به وحده لا شريك له واتباع رسله وأخبر تعالى أنه لما أخذ عليهم الميثاق رفع الجبل فوق رءوسهم ليقروا بما عوهدوا عليه ويأخذوه بقوة وجزم وامتثال كما قال تعالى (وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون) فالطور هو الجبل كما فسره به فى الأعراف ونص على ذلك ابن عباس وعنه قال لما امتنعوا عن الطاعة رفع عليهم الجبل ليسمعوا . وقال السدى فلما أبوا أن يسجدوا أمر الله الجبل أن يقع عليهم فنظروا إليه وقد غشيهم فسقطوا سجداً فسجدوا .. وذلك قول الله تعالى (ورفعنا فوقكم الطور) وقال الحسن فى قوله (خذوا ما آتيناكم بقوة) يعنى التوراة (واذكروا ما فيه) اقرءوا ما فى التوراة واعملوا به . وقوله تعالى (ثم توليتم من بعد ذلك فلولا فضل الله) ثم بعد هذا الميثاق المؤكد العظيم توليتم عنه ونقضتموه (فلولا فضل الله ورحمته) أى بتوبته عليكم وإرساله النبيين والمرسلين إليكم (لكنتم من الخاسرين) بنقضكم ذلك الميثاق فى الدنيا والآخرة .

(ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم فى السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين * فجعلناها نكالا لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين)

يقول تعالى (ولقد علمتم) يا معشر اليهود ما أحل من البأس بأهل القرية التى عصت أمر الله وخالفوا عهده وميثاقه فيما أخذه عليهم من تعظيم السبت والقيام بأمره إذ كان مشروعاً لهم فتحيلوا على اصطياد الحيتان فى يوم السبت بما وضعوا لها من النصوص والحبائل والبرك قبل يوم السبت فلما جاءت يوم السبت على عادتها فى الكثرة نشبت بتلك الحبائل والحيل فلم تخلص منها يومها ذلك فلما كان الليل أخذوها بعد انقضاء السبت . فلما فعلوا ذلك مسخهم الله إلى صورة القردة وهى أشبه شىء بالأناسى فى الشكل الظاهر وليست بإنسان حقيقة . فكذلك أعمال هؤلاء وحيلتهم لما كانت مشابهة للحق فى الظاهر ومخالفة له فى الباطن كان جزاؤهم من جنس عملهم

وهذه القصة مبسوطة فى سورة الأعراف حيث يقول تعالى (واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر إذ يعدون فى السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعاً ويوم لا يسبتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون) وسنورد أقوال المفسرين عند هذه السورة إن شاء الله وبه الثقة .

وقوله تعالى (فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين) فعن مجاهد قال مسخت قلوبهم ولم يمسخوا قردة وإنما هو مثل ضربه الله (كمثل الحمار يحمل أسفارا) وقال بعضهم إن هذا التفسير لا يتفق مع السياق فى هذا المقام وفى غيره قال الله تعالى (قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت) .

وقال الضحاك عن ابن عباس فمسخهم الله قردة بمعصيتهم ولم يعش مسخ منهم قط فوق ثلاثة أيام ولم يأكل ولم يشرب ولم ينسل

وعن ابن عباس أيضاً أنه قال : إن الله إنما افترض على بنى إسرائيل اليوم الذى افترض عليكم فى عيدكم . يوم الجمعة . فخالفوا إلى السبت فعظموه وتركوا ما أمروا به فلما أبوا إلا لزوم السبت ابتلاهم الله فيه فحرم عليهم ما أحل لهم فى غيره وكانوا فى قرية بين أيلة والطور يقال لها مدين . فحرم الله عليهم فى السبت الحيتان صيدها وأكلها وكانوا إذا كان يوم السبت أقبلت إليهم شرعا إلى ساحل بحرهم حتى إذا ذهب السبت ذهبن فلم يروا حوتا صغيراً ولا كبيراً حتى إذا كان يوم السبت أتين سراً حتى إذا ذهب السبت ذهبن فكانوا كذلك حتى طال عليهم الأمد وقرموا إلى الحيتان عمد رجل منهم فأخذ حوتا سراً يوم السبت فحزمه بخيط ثم أرسله فى الماء وأوتد له وتدا فى الساحل فأوثقه ثم تركه حتى إذا كان الغد جاء فأخذه أى أنه لم يأخذه فى يوم السبت وانطلق فأكله حتى إذا كان يوم السبت الآخر عاد لمثل ذلك ووجد الناس ريح الحيتان ، فقال أهل القرية والله لقد وجدنا ريح الحيتان ، ثم عثروا على صنيع ذلك الرجل ، قال ففعلوا كما فعل وصنعوا سراً زمانا طويلا لم يعجل الله عليهم للعقوبة حتى صادوها علانية وباعوها بالأسواق ، فقالت طائفة منهم من أهل البقية ويحكم اتقوا الله ، وانهوهم عما كانوا يصنعون ، فقالت طائفة أخرى لم تأكل الحيتان ولم تنه القوم عما صنعوا : لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً ؟ قالوا معذرة إلى ربنا بسخطنا أعمالهم ولعلهم يتقون ، قال ابن عباس : فبينما هم على ذلك أصبحت تلك البقية فى أنديتهم ومساجدهم فتفقدوا الناس فلم يروهم قال :

فقال بعضهم لبعض إن للناس شأنا فانظروا ماهو، فذهبوا ينظرون فى دورهم فوجدوها مغلقة عليهم قد دخلوها ليلا فغلقوها على أنفسهم كما يغلق الناس على أنفسهم فأصبحوا فيها قردة وإنهم ليعرفون الرجل بعينه وإنه لقرد والمرأة بعينها وإنها لقردة والصبى بعينه وإنه لقرد .. قال ابن عباس فلولا ما ذكر الله أنه نجى الذين نهوا عن السوء لقد أهلك الله الجميع منهم ، قال وهى القرية التى قال جل ثناؤه لمحمد ﷺ (واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر) .

* * *

وإلى هذا المعنى ذهب مفسرون آخرون والغرض من هذا السياق عن هؤلاء الأئمة بيان خلاف ما ذهب إليه مجاهد رحمه الله من أن مسخهم إنما كان معنويا لا صوريا بل الصحيح أنه معنوى صورى والله تعالى أعلم .

* * *

وقوله تعالى (فجعلناها نكالا) قال بعضهم الضمير فى فجعلناها عائد على القردة وقيل على الحيتان وقيل على العقوبة وقيل على القرية حكاها ابن جرير والصحيح أن الضمير عائد على القرية ، أى فجعل الله هذه القرية والمراد أهلها بسبب اعتدائهم فى سبتهم (نكالا) أى عاقبناهم عقوبة فجعلناها عبرة كما قال الله عن فرعون (فأخذه الله نكال الآخرة والأولى) .

وقوله تعالى (لما بين يديها وماخلفها) أى من القرى ، قال ابن عباس يعنى جعلناها بما أحللنا بها من العقوبة عبرة لما حولها من القرى كما قال تعالى (ولقد أهلكنا ماحولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون) .

فالله سبحانه جعلهم عبرة ونكالا لمن فى زمانهم وموعظة لمن يأتى بعدهم بالخبر المتواتر عنهم ولهذا قال (وموعظة للمتقين) الذين من بعدهم إلى يوم القيامة فيتقون نقمة الله ويحذرونها .

وعن أبى سلمة عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال « لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل » وهو حديث بإسناد جيد .

* * *

(وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة قالوا أتتخذنا هزوا قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين . قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ماهى قال إنه يقول إنها بقرة لافارض ولا بكر عوان بين ذلك فافعلوا ما تؤمرون قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين. قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هى ان البقر تشابه علينا وانا ان شاء الله لمهتدون قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقى الحرث مسلمة لا شية فيها قالوا الآن جئت بالحق فذبحوها وما كادوا يفعلون)

روى أن رجلا من بنى إسرائيل كان غنياً ولم يكن له ولد وكان له قريب يرثه فقتله ليرثه ثم ألقاه على مجمع الطريق وأتى موسى عليه السلام فقال إن قريبى قتل وإنى لا أجد أحداً يبين لى من قتله غيرك يا نبى الله . قيل فنادى موسى فى الناس فقال : أنشد الله من كان عنده من هذا علم إلا يبينه لنا ، فلم يكن عندهم علم فأقبل القاتل على موسى عليه السلام ، فقال أنت نبى الله فسل لنا ربك أن يبين لنا ، فسأل ربه فأوحى الله (إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة) فعجبوا من ذلك فقالوا (أتتخذنا هزوا ! قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين . قالوا أدع لنا ربك يبين لنا ماهى ؟ قال إنه يقول إنها بقرة لا فارض) يعنى لاهرمة (ولا بكر) يعنى ولا صغيرة (عوان بين ذلك)أى صاف لونها (تسر الناظرين)أى تعجب الناظرين (قالوا أدع لنا ربك يبين لنا ماهى؟ إن البقر تشابه علينا وإنا إن شاء الله لمهتدون . قال إنه يقول إنها بقرة لاذلول) أى لم يذللها العمل (تثير الأرض ولاتسقى الحرث) يعنى ولا تعمل فى الحرث (مسلمة) يعنى

مسلمة من العيوب (لا شية فيها) لا بيـــاض فيها (قالوا الآن جئت بالحق فذبحوها وما كادوا يفعلون) .

* * *

قال : ولو أن القوم حين أمروا بذبح بقرة استعرضوا بقرة من البقر فذبحوها لكانت إياها ، ولكن شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم ولولا أن القوم استثنوا فقالوا وإنا إن شاء الله لمهتدون لما هدوا إليها أبدا ، فبلغنا أنهم لم يجدوا البقرة التى نعتت لهم إلا عند عجوز وعندها يتامى وهى القيمة عليهم ، فلما علمت أنه لا يزكوا لهم غيرها أضعفت عليهم الثمن ، فأتوا موسى فأخبروه أنهم لم يجدوا هذا النعت إلا عند فلانة وإنها سألت اضعاف ثمنها ، فقال موسى إن الله قد خفف عليكم فشددتم على أنفسكم فأعطوها رضاها وحكمها .

ففعلوا واشتروها فذبحوها فأمرهم موسى عليه السلام أن يأخذوا عظما منها فيضربوا به القتيل ففعلوا فرجع إليه روحه فسمى لهم قاتله ثم عاد ميتا كما كان فأخذ قاتله وهو الذى كان أتى موسى عليه السلام فشكا إليه فقتله الله على أسوإ عمله .

* * *

وإذ قتلتم نفسا فادارءتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون . فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحى الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون .

* * *

قال البخارى (فادارأتم فيها) اختلفتم .. (والله مخرج ما كنتم تكتمون) ما تغيبون ، وعن المسيب بن رافع أنه قال ما عمل رجل حسنة فى سبعة أبيات إلا أظهرها الله وما عمل رجل سيئة فى سبعة أبيات إلا أظهرها الله وتصديق ذلك فى كلام الله (والله مخرج ما كنتم تكتمون . فقلنا اضربوه ببعضها) هذا البعض أى شىء كان من أعضاء هذه البقرة فالمعجزة حاصلة به وخرق العادة به كائن وقد كان معينا فى نفس الأمر فلو كان فى تعيينه لنا فائدة تعود علينا فى أمر الدين أو الدنيا لبينه الله تعالى لنا وقيل فضرب بفخذها فقام فقال قتلنى فلان ثم عاد ميتا كما كان (كذلك يحى الله الموتى) تنبيه على قدرة الله بإحياء الموتى بما شاهدوه من أمر القتيل جعل تبارك وتعالى ذلك

الصنيع حجة لهم على المعاد . وفاصلا ما كان بينهم من الخصومة والعناد . والله تعالى قد ذكر فى هذه السورة مما خلقه من إحياء الموتى فى خمسة مواضع (ثم بعثناكم من بعد موتكم) وهذه القصة ، وقصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت ، وقصة الذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها . وقصة ابراهيم عليه السلام والطيور الأربعة ، ونبه تعالى بإحياء الأرض بعد موتها على إعادة الأجسام بعد صيرورتها رميما

وفى الحديث الشريف عن أبى رزين العقيلى رضى الله عنه . قال قلت يارسول الله كيف يحيى الله الموتى ؟ قال « أما مررت بواد محل ثم مررت به خضراً » قال بلى . قال « كذلك النشور » أو قال « كذلك يحيى الله الموتى »

وشاهد هذا قوله تعالى (وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون . وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون)

ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون .

يقول تعالى توبيخا لبنى إسرائيل وتقريعاً لهم على ما شاهدوه من آيات الله تعالى وإحيائه الموتى (ثم قست قلوبكم من بعد ذلك) كله فهى كالحجارة التى لا تلين أبداً ولهذا نهى الله المؤمنين عن مثل حالهم فقال (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون) فصارت قلوب بنى إسرائيل مع طول الأمد قاسية بعيدة عن الموعظة بعد ماشاهدوه من الآيات والمعجزات فهى فى قسوتها كالحجارة التى لا علاج للينها أو أشد قسوة من الحجارة فإن من الحجارة ما يتفجر منها العيون بالأنهار الجارية ومنها ما يشقق فيخرج منه الماء وإن لم يكن جاريا ومنها ما يهبط من رأس الجبل من خشية الله وفيه إدراك لذلك كما قال (تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن

وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفورا .)

وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد أنه كان يقول كل حجر يتفجر منه الماء أو يتشقق عن ماء أو يتردى من رأس جبل لمن خشية الله نزل بذلك القرآن .

وكما أسند الخشوع إلى الحجارة كذلك اسندت الإرادة إلى الجدار في قوله تعالى (يريد أن ينقض) قال الرازي والقرطبي أن الله يخلق فيها هذه الصفة كما في قوله تعالى (إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها) وقال (والنجم والشجر يسجدان) وقال (قالتا أتينا طائعين . لو أنزلنا هذا القرآن على جبل) (وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله)

وفي الصحيح « هذا جبل يحبنا ونحبه » وكحنين الجذع المتواتر خبره وفي صحيح مسلم « أني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم علي قبل أن أبعث إني لأعرفه الآن » وفي صفة الحجر الأسود أنه يشهد لمن استلم بحق يوم القيامة وغير ذلك مما في معناه.

* * *

أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون . وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أفلا تعقلون. أولا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون ..

أفتطمعون أيها المؤمنون (أن يؤمنوا لكم) أي ينقاد لكم بالطاعة هؤلاء الفرقة الضالة من اليهود الذين شاهد آباؤهم من الآيات البينات ماشاهدوه ثم قست قلوبهم بعد ذلك (وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه) أي يتأولونه على غير تأويله (من بعد ما عقلوه) أي فهموه ومع هذا يخالفونه على بصيرة (وهم يعلمون) أنهم مخطئون فيما ذهبوا إليه من تحريفه وتأويله وهذا المقام شبيه بقوله تعالى (فبما نقضهم ميثاقهم

لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه) ثم قال الله تعالى لنبيه محمد ﷺ ومن معه من المؤمنين يؤيسهم منهم (أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله) وهم الذين سألوا موسى رؤية ربهم فأخذتهم الصاعقة فيها .

قال محمد بن اسحاق فيما حدثني بعض أهل العلم أنهم قالوا لموسى يا موسى قد حيل بيننا وبين رؤية ربنا تعالى فأسمعنا كلامه حين يكلمك فطلب ذلك موسى إلى ربه تعالى فقال نعم مرهم فليتطهروا وليطهروا ثيابهم ويصوموا ففعلوا ثم خرج بهم حتى أتوا الطور فلما غشيهم الغمام أمرهم موسى أن يسجدوا فوقعوا سجوداً وكلمه ربه فسمعوا كلامه يأمرهم وينهاهم حتى عقلوا منه ما سمعوا ثم انصرف بهم إلى بنى إسرائيل فلما جاءوهم حرف فريق منهم ما أمرهم به وقالوا حين قال موسى لبنى إسرائيل إن الله قد أمركم بكذا وكذا ، قال ذلك الفريق الذين ذكرهم الله إنما قال كذا وكذا خلافاً لما قال الله عز وجل، لهم فهم الذين عنى الله لرسوله ﷺ .

وقال بعضهم إن المقصود أنهم حرفوا التوراة وقال مجاهد الذين يحرفونه والذين يكتمونه هم العلماء منهم وقال أبو العالية عمدوا إلى ما أنزل الله فى كتابهم من نعت محمد ﷺ فحرفوه عن مواضعه .وقال آخرون فى قوله تعالى (يسمعون كلام الله ثم يحرفونه) قال التوراة التى أنزلها الله عليهم يحرفونها يجعلون الحلال فيها حراماً والحرام فيها حلالا والحق فيها باطلا والباطل فيها حقاً ، إذا جاءهم المحق برشوة أخرجوا له كتاب الله وإذا جاءهم المبطل برشوة أخرجوا له ذلك الكتاب فهو فيه محق وإذا جاءهم أحد يسألهم شيئاً ليس فيه حق ولا رشوة ولا شيء أمروهم بالحق فقال الله لهم (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون)

* * *

وقوله تعالى (وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا) فهم المنافقون من اليهود كانوا إذا لقوا أصحاب محمد ﷺ قالوا آمنا .

وفى حديث عن ابن وهب قال كان رسول الله ﷺ قد قال « لا يدخلن علينا قصبة المدينة إلا مؤمن » فقال رؤساء أهل الكفر والنفاق اذهبوا فقولوا آمنا واكفروا إذا رجعتم إلينا فكانوا يأتون المدينة بالبكر ويرجعون اليهم بعد العصر . وقرأ قوله تعالى (وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون) وكانوا يقولون إذا دخلوا المدينة نحن

مسلمون ليعلموا خبر رسول الله ﷺ وأمره ، فإذا رجعوا رجعوا إلى الكفر فلما أخبر الله نبيه ﷺ قطع ذلك عنهم فلم يكونوا يدخلون . وكان المؤمنون يظنون أنهم مؤمنون فيقولون أليس قد قال الله لكم كذا وكذا . فيقولون بلى . فإذا رجعوا إلى قومهم يعنى الرؤساء فقالوا (أتحدثونهم بما فتح الله عليكم) الآية . ويعنى بما أنزل الله عليكم فى كتابكم من نعت محمد ﷺ .

* * *

(ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أمانى وإن هم إلا يظنون . فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون

يقول تعالى (ومنهم أميون) أى من أهل الكتاب (لا يعلمون الكتاب) لا يدرون ما فيه . ولهذا فى صفات النبى محمداً ﷺ : أنه الأمى لأنه لم يكن يحسن الكتابة كما قال تعالى (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون) وقال تبارك وتعالى (هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم) وقوله تعالى (إلا أمانى) إلا قولا يقولون بأفواههم كذباً فالمعنى أن أناساً من اليهود لم يكونوا يعلمون من الكتاب شيئاً وكانوا يتكلمون بالظن بغير ما فى كتاب الله ويقولون هو من الكتاب ، أمانى يتمنونها فهم يتخرصون الكذب ويتخرصون الأباطيل كذباً وزوراً . وقال مجاهد (وإن هم إلا يظنون) يكذبون (فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا) وهؤلاء هم صنف آخر من اليهود هم دعاة إلى الضلال بالزور والكذب على الله وأكل أموال الناس بالباطل

وقال السدى : كان ناس من اليهود كتبوا كتاباً من عندهم يبيعونه من العرب ويحدثونهم أنه من عند الله فيأخذوا به ثمناً قليلا .

وقال الزهرى : أخبرنى عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس أنه قال : يا معشر المسلمين كيف تسألون أهل الكتاب عن شىء وكتاب الله الذى أنزله على نبيه أحدث أخبار الله تقرءونه غضاً لم يشب وقد حدثكم الله تعالى أن أهل الكتاب قد بدلوا

كتاب الله وغيروه وكتبوا بأيديهم الكتاب وقالوا هو من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلا ، أفلاينهاكم ما جاءكم من العلم عن مساءلتهم ولا والله ما رأينا منهم أحداً قد سألكم عن الذى أنزل عليكم .

(فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون) وويل لهم مما كتبوا بأيديهم من الكذب والبهتان وويل لهم مما أكلوا به من السحت

* * *

(وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْداً فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ

يقول تعالى إخباراً عن اليهود فيما تقلوه وادعوه لأنفسهم من أنهم لن تمسهم النار إلا أياماً معدودة ثم ينجون منها فرد الله عليهم ذلك بقوله تعالى (قل اتخذتم عند الله عهدا) بذلك فان كان قد وقع عهد فهو لا يخلف عهده ولكن ذلك لم يحدث بل تقولون على الله ما لا تعلمون من الكذب والافتراء .

وعن ابن عباس أن اليهود كانوا يقولون إن هذه الدنيا سبعة آلاف سنة وإنما نعذب بكل ألف سنة يوماً فى النار وإنما هى سبعة أيام معدودة فأنزل الله تعالى (وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة) وقال الضحاك قال ابن عباس زعمت اليهود أنهم وجدوا فى التوراة مكتوباً أن ما بين طرفى جهنم مسيرة أربعين سنة إلى أن ينتهوا إلى شجرة الزقوم التى هى ثابتة فى أصل الجحيم ، وقال أعداء الله إنا نعذب حتى ننتهى إلى شجرة الزقوم فتذهب جهنم وتهلك ورويت أقوال أخرى من أنهم زعموا أن عذابهم فى جهنم مدة أربعين يوماً هى المدة التى عبدوا فيها العجل

* * *

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : لما فتحت خيبر أهديت لرسول الله ﷺ شاة فيها سم فقال رسول الله ﷺ « اجمعوا لى من كان من اليهود ههنا » فقال لهم رسول الله ﷺ « من أبوكم ؟ » قالوا فلان قال « كذبتم بل أبوكم فلان » فقالوا صدقت وبررت ثم قال لهم « هل أنتم صادقىّ عن شىء إن سألتكم عنه ؟ » قالوا نعم يا أبا القاسم وإن

كذبناك عرفت كذبنا كما عرفته فى أبينا فقال لهم رسول الله ﷺ « من أهل النار ؟ » فقالوا نكون فيها يسيراً ثم تخلفونا فيها فقال لهم رسول الله ﷺ « اخسئوا والله لا نخلفكم فيها أبدا » ثم قال لهم رسول الله ﷺ « هل أنتم صادقىّ عن شىء إن سألتكم عنه ؟ » قالوا نعم يا أبا القاسم قال « هل جعلتم فى هذه الشاة سماً ؟ » فقالوا نعم . قال « فما حملكم على ذلك » فقالوا أردنا أن كنت كاذباً أن نستريح منك وإن كنت نبياً لم يضرك . ورواه الإمام احمد والبخارى والنسائى من حديث الليث بن مسعد ونحوه

بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . والذين ءامنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون .

ليس الأمر كما تمنيتم ولا كما تشتهون بل الأمر أنه من عمل سيئة وأحاطت به خطيئه وهو من وافى يوم القيامة وليست له حسنة بل جميع أعماله سيئات فهذا من أهل النار (والذين آمنوا وعملوا الصالحات) أى آمنوا بالله ورسوله وعملوا الصالحات من العمل الموافق للشريعة فهم من أهل الجنة وهذا المقسام شبيه بقوله تعالى (ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوءا يجز به ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيرا . ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا) .

* * *

(بلى من كسب سيئة) أى عمل مثل أعمالكم وكفر بمثل ما كفرتم به حتى يحيط به كفره فماله من حسنة (وأحاطت به خطيئته) قيل الذى يموت على خطاياه من قبل أن يتوب .

وعن ابن مسعود عن رسول الله ﷺ « إياكم ومحقرات الذنوب فانهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه » وإن رسول الله ﷺ ضرب لهم مثلا كمثل قوم نزلوا بأرض فلاة فحضر صنيع القوم فجعل الرجل ينطلق فيجىء بالعود والرجل يجىء بالعود حتى جمعوا سواداً وأججوا ناراً فأنضجوا ماقذفوا فيها .

(والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون) أى من آمن بما كفرتم به وعمل بما تركتم من دينه فلهم الجنة خالدين فيها يخبرهم أن الثواب بالخير والشر مقيم على أهله أبداً لا انقطاع له .

* * *

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ

مايزال السياق متصلا مع بنى إسرائيل أن الله سبحانه يذكرهم بما أمرهم به من الأوامر وأخذه ميثاقهم عليها وأنهم تولوا عن ذلك كله وأعرضوا قصداً وعمداً وهم يعرفونه ويذكرونه فأمرهم تعالى أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا وبهذا أمر جميع خلقه ولذلك خلقهم كما قال تعالى (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) وقال تعالى (ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) وهذا هو أعلى الحقوق وأعظمها وهو حق الله تبارك وتعالى أن يعبد وحده لا شريك له ثم بعده حق المخلوقين وآكدهم وأولاهم بذلك حق الوالدين ولهذا يقرن تبارك وتعالى بين حقه وحق الوالدين كما قال تعالى (أن اشكرلى ولوالديك إلى المصير) وقال تبارك وتعالى (وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا) إلى أن قال (وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل) وفى الصحيحين عن ابن مسعود قلت يارسول الله أى العمل أفضل ؟ قال « الصلاة على وقتها » قلت ثم أى ؟ قال « بر الوالدين » قلت ثم أى قال « الجهاد فى سبيل الله » ولهذا جاء فى الحديث الصحيح أن رجلا قال يارسول الله من أبر ! قال « أمك » قال ثم من ! قال « أمك » قال ثم من ! قال « أباك ثم أدناك ثم أدناك » .

* * *

وقوله تعالى (وقولوا للناس حسناً) أى كلموهم طيباً ولينوا لهم جانباً ويدخل فى ذلك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بالمعروف كما قال الحسن البصرى فى قوله تعالى

(وقولوا للناس حسناً) فالحسن من القول يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويحلم ويعفو ويصفح ويقول حسناً للناس كما قال الله وهو كل خلق حسن رضيه الله

* * *

وعن أبي ذر رضى الله عنه أن النبي ﷺ قال « لا تحقرن من المعروف شيئا وإن لم تجد فالق أخاك بوجه منطلق » .

وإن القول الحسن للناس بعد الأمر بالإحسان إليهم هو جمع بين طرفى الإحسان العقلى والقولى ثم أكد سبحانه الأمر بعبادته والإحسان إلى الناس بما يتعين من ذلك وهو الصلاة والزكاة فقال (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) وأخبر أنهم تولوا عن ذلك كله أى تركوه وراء ظهورهم وأعرضوا عنه على عمد بعد العلم به إلا القليل منهم وقد أمر الله هذه الأمة بنظير ذلك فى سورة النساء بقوله (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم ، إن الله لايحب من كان مختالا فخورا) فقامت هذه الأمة من ذلك بما لم تقم به أمة من الأمم قبلها ولله الحمد والمنة

وقد روى أسد بن وداعة أنه كان يخرج من منزله فلا يلقى يهوديا ولا نصرانيا إلا سلم عليه فقيل له : ماشأنك تسلم على اليهودى والنصرانى ؟

فقال : إن الله تعالى يقول (وقولوا للناس حسناً) وهو السلام .

وروى عن عطاء الخراسانى نحو ذلك .. (قلت) وقد ثبت فى السنة أنهم لايبدءون بالسلام والله أعلم .

تم الجـــزء الأول

ويليه الجزء الثـــانى

إن شـاء الله وأوله

(وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ثم أقررتم وأنتم تشهدون . . الخ